طلعنا عالحريّة

حرية، كرامة، مواطنة

إذا الشعب يوماً..

العدد 97
2021 / 8 / 16
مجلة شهرية، سياسية، ثقافية، مستقلة

إذا الشعب يوماً..

افتتاحية بقلم أسامة نصّار

من الخطاب الشهير للرئيس التونسي قيس سعيّد، الذي أعلن فيه حلّ البرلمان المنتخب، وإعفاء الحكومة والسيطرة على مفاصل الحكم ومنها القضاء، إلى إعلان الجنرال حفتر رفضه لأي إدارة مدنية للبلاد، إلى إعلان حركة طالبان سيطرتها على باقي المدن الأفغانية المفصلية بعد انسحاب الأمريكان، تتعزز لدى الشعوب المستضعفة عوامل التطرف والعدمية. فلا شيء يجدي، لا الثورات السلمية ولا حركات التحرر الوطنية المسلّحة. وكل ما يقوله الغرب عن نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان كذب، ولا أصدقاء لنا نحن المستضعفين المقهورين.

...

إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. فستنبت في أرضه فطريات مسلّحة، بشعارات إيمانية وبنادق كافرة، ترى الحياة بقتل المغاير، أو إكراهه في كل تفاصيل حياته.. ومماته!

إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. ستتمسكن له جنرالاته حملاناً وادعة حتى يعطيها الأمان، لتنقلب عليه ذئاباً كاسرة، وتعيده تحت البسطار، أو حوله، وتؤمن له كل حقوقه.. في تلميع البسطار!

إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. تتقاطر على أرضه الجيوش، لتصبح مهمة تحرره تابعاً لوغاريتمياً من الدرجة العاشرة.

إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. يموت بعضه، ويُسجن بعضه، ويُحاصر بعضه، ويهجَّره بعضه، وينسحق الباقون منه في سعيهم وراء اللقمة..

إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. تنعقد على اسمه مؤتمرات وجلسات لمجلس الأمن؛ تقول إن الحق معه، لكننا سندعم الباطل.. ضدّه!

....

كل ذلك حصل.. وأكثر.

والواقع يقول بوضوح إن الحياة الكريمة مطلب عصيّ على التحقيق..

ولكن..

إذا الشعب يوماً أراد الحياة..

عليه أن يعرف -أو يتعلّم- أن التغيير هو مسيرة حياة، وليس لحظة حماسية عابرة..

إن كانت دراسة التجارب الفاشلة أو غير المكتملة من موجبات التغيير فهي واجبة، وملحّة. وإن كان بناء العلاقات الصحيّة مع القوى المؤثرة من أسباب التغيير فهو أيضاً واجب ملحّ. وإن كان طريق التغيير صعباً وفيه مطبّات وحفر وأفخاخ، فعليه أن يخوضه بحفره ومطباته ورياحه المعاكسة..

إذا الشعب يوماً أراد الحياة..

لتكن تتمة الشطر أي تتمة.. سيئة أو متفائلة.. ولترسل قوى الظلام في الأرض كل رسائل التطرّف والجنون والعدم.. غير إن البقاء على ذمّة الانحياز للحياة والتحرر والكرامة، أفضل ألف مرة من الركون لقوانين الظلم والاستعلاء في الأرض.. وإن تأخرت استجابة القدر..

إذا الشعب يوماً..

سيبقى منه ولو فرد واحدٌ، يكافح على قيد الحياة.. على قيد الشرف!

طلعنا عالحريّة

شهرية ثقافية، اجتماعية، سياسية، تعنى بالشأن السوري

www.freedomraise.net

- المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير
- المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد

رئيس التحرير أسامة نصّار

نائب رئيس التحرير ليلى الصفدي

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت

facebook.com/rising4freedom

twitter.com/freedomraise

freedomraise@gmail.com

المدير الإداري	الغلاف	كاريكاتير	أمن رقمي ومحاسبة	زملاء مختطفون في سوريا
معتصم أبو الشامات	سمير خليلي	سمير خليلي / هاني عبّاس	وائل موسى	رزان زيتونة - ناظم حمادي

السويداء تكرر: "اللّه من جهد البلاء"

جمال الشوفي

أكدت الأيام الماضية، ومن خلال أحداثها المتتالية في منطقتي شهبا والرحى، رفض ونبذ أهالي السويداء لقائمة من المفردات، وهي:

- المشاريع الفئوية الضيقة التي تقصر أبناء هذه المحافظة على قدر طائفي أقلوي، لم يكونوا يوماً من رعاته بقدر ما أنهم رعاة وطنية وانتماء سوري.
- التصعيد باتجاه الاقتتال الداخلي، أو الانجرار للغة الحرب.. ما لم تُفرض عليهم.
- رفض ميليشيات الخطف والسلب والنهب وتجارة المخدرات، والتي أثبتت أحداث شهبا فيها حيازة أفرادها لا على المخدرات وحسب، بل على المنفجرات المحظورة كـ TNT والـ C4، والتي عرضها أصحابها على الملأ! وأثبتت أيضاً تبعية أفراد هذه العصابات بما لا شك فيه لأجهزة أمنية متعددة، من خلال البطاقات الأمنية التي وجدت بحوزتهم، هذا عدا عن السيارات المسروقة أو المعروفة بـ "اللفة".
- رفض الفلتان الأمني الممنهج، وسياسة إفقار وتجويع الناس والفساد الحكومي القائم، وما ينتج عنه من تضييق على سبل الحياة ومعاش الناس، دون أي حلول ترجى.
- كما أثبت الواقع الأهلي رفضه للوجود الميليشوي العسكري بين المدنيين، ورفض الانجرار خلف المشاريع المشبوهة لها، فقد أثبتت أحداث الرحى عدم قبول المجتمع المحلي لكل من كتائب الدفاع الوطني المرعية من الأجهزة الأمنية والداعم الإيراني، وأيضاً ما سُمي أخيراً بقوة مكافحة الإرهاب غير متضح المعالم والهوية بعد، والتي كاد التصعيد بينهما يؤدي لاقتتال تذهب نتيجته الأبرياء، وتزيد في تفكيك النسيج المجتمعي، وتغليب سياسة المشاريع والأجندات الخارجية.

في هذا السياق، برز خطابي ليث البلعوس، نجل المرحوم وحيد البلعوس، والشيخ سليمان عبد الباقي ليعبّرا عن البعد الأهلي للمحافظة ورفضهم بشكل أساسي المشروع الإيراني وتبعاته في الجنوب السوري عامة والسويداء خاصة، والتمسك بالهوية الوطنية السورية ورفض الانجرار لمقتلة داخلية. ويضاف إليها طرح أفكار تتعلق بحرية التفكير وتأسيس الأحزاب السياسية، وعدم احتكارها من قبل حزب البعث وجبهته الوطنية، وهذه عندما تأتي على لسان رجال دين وقادة فصائل فلها معنى إيجابي وإشارة هامة في التقدم باتجاه البعد السياسي للعمل الوطني.

السويداء، كأي رقعة في سوريا، تجدها تغرق في مشاكلها الداخلية ومفارقات الحياة اليومية، فتجد بها كل صنوف البشر ونماذج وطباع حياتهم. السويداء الموسومة بالأقلية الدينية، ما يجعلها ترتاب إزاء المختلف عنها دينياً وسياسياً، ويجعل سياق أحداثها أكثر إشهاراً من غيرها؛ فتبدو وكأنها ذات سمات خاصة. فقد عانت هذه الأقلية التهميش الوظيفي والسياسي والاقتصادي التاريخي منذ العام 1966، وزادت في الآونة الأخيرة الضغوط الاقتصادية عليها، خاصة وأنها لا تملك معبراً حدودياً ولا مشاريع تنموية محلية، ويعتمد سكانها على الراتب الوظيفي والزراعة البعلية. ولولا وجود أبنائها المغتربين الذين وصلت نسبتهم لما يقرب 50% ليساعدوا أهاليهم بالداخل، لفرغت المحافظة من سكانها. هذا إضافة لمحاولات عدة لجرها للدخول في معترك المقتلة السورية، أو الاقتتال الداخلي فيما بينها، لكنها برهنت طوال السنوات العشر الماضية أن لها طريقتها المختلفة في علاج أحداثها، فهل يمكنها الثبات والاستمرار؟

لليوم السويداء، لا زالت غنية بإمكانيات سياسية وفكرية، وقوى محلية قادرة على الثبات كخطوط دفاع خلفية. فرغم كل المخاوف التي تحيق بها، والمشاريع ذات الشبهة الخارجية خاصة الإيرانية وغيرها، تثبت تمسكها بالثوابت الوطنية العامة: السلم والأمان، رفض الدم ولغة الحرب والقوة، تغليب سياسة العقل والحكمة وعدم الانجرار خلف المشاريع الطائفية، التأكيد على الفصل بين الدولة ومؤسساتها وبين جهاز السلطة القائم، الذي بات متهماً من كل الأطراف بالمحافظة، سراً وعلانية، بالفساد والخراب ورعاية الفتن وسبب النكبة والكوارث السورية والسويداء منها. وينتظر عمقها الأهلي أدوات التغيير السياسي الممكنة، دون أن ينجروا لمواجهة عسكرية ما، يعلمون جيداً أنها خاسرة مجتمعياً ووطنياً.

"الله من جهد البلاء"، جملة تلخص تاريخ وحاضر يعاش، تاريخ يحتكم للعقل وتأخير مفاعيل القوة، وتستلزم علاجاً حكيماً لكل أشكال الشدة والمشقة التي لا طاقة عليها. جملة كثر ترديدها في السنوات الماضية من أهالي السويداء، وهم المعروفون بأنهم أقلية دينية تدين لطائفة المسلمين الموحدين المعروفين بالدروز دينياً، وبالبعد الوطني في الانتماء لسوريا منذ أرسى سلطان الأطرش قيادة ثورة الـ 1925 تحت "شعار الدين لله والوطن للجميع"، وذلك حين التقى بالكتلة الوطنية الدمشقية ممثلة بعبد الرحمن الشهبندر. وهذا تاريخ تبدو إمكانية استعادته اليوم مرة أخرى إذا ما أخذت بعين الاعتبار ثوابتهم العامة من بوابة السلم ورفض القتل وتحقيق خطوات التغيير الوطني التي تقود للاستقرار والأمان. ما يستلزم فعلاً سياسياً وطنياً متكامل الأبعاد، سواء على صعيد المحافظة أو على صعيد تمكين صلاتها بأقرانها السوريين، فوجود قوى عسكرية متعددة الأهداف في رقعة ضيقة كالسويداء لن يجعل المنطقة مستقرة، ما لم ترتبط بفعل اجتماعي وطني ذي عمق سياسي ومدني، يرفض لغة الحرب، ويعمل بالتنسيق والتوازي مع الحوامل المجتمعية المحلية التي أعلنت اتفاقها على هذه الأسس، وبذات الوقت مع السوريين الراغبين بتقصير عمر هذه الفترة المستعصية سياسياً وأمنياً واقتصادياً وحياتياً أيضاً. ما يجعل التغير السياسي الديمقراطي ليس هدفاً سياسياً للمعارضة وحسب، كما هو مشاع، بل حاجة عامة وضرورة واقعية تنعكس بنتائجها على الجميع.

فهل تجيب الأيام القادمة عن استمرار قدرة أهالي السويداء الذاتية على درء البلاء وتحقيق السلم والأمان؟ وهل تستجيب معها القوى الوطنية السياسية السورية؟ أم أن هناك جولات للموت والحرب بسوريا لم تنته بعد، ولا زالت أدواتها تمتلك القدرة على جر أبناء المحافظة لمشاريع مشبوهة واقتتال مفتعل؟

النهضة العربيّة المأمولة مشروطة بإصلاح ديني ـ ثقافي يقدّم العقل على النص!

طلعنا عالحرية تحاور الكاتب مرزوق الحلبي

على ضوء أحداث تونس الأخيرة، وما سبقها من انهيارات كارثية لثورات الربيع العربي خلال السنوات العشر الأخيرة، وعلى ضوء انتعاش الثورات المضادة في كل مكان وخفوت الآمال بالتغيير المنشود، كان لمجلة طلعنا عالحرية هذا الحوار مع الكاتب مرزوق الحلبي من فلسطين المحتلة، والذي امتد إلى مسائل النهضة العربية واخفاقاتها وإمكاناتها المستقبلية. الحلبي مثقّف نقديّ يأتي من مجالات الحقوق والعلوم السياسيّة والاستشراف. شاعر وناقد ثقافي. يدرّس العلوم السياسية والأدب. له إسهامات في مقاربة موضوعات العولمة والهويّة واللغة والأخلاق وما بعد الحداثة.

فيما يلي الحوار كاملاً:

1. ها هي تونس تُعيدنا ربّما إلى المربّع الأوّل، عشية الربيع العربي، كيف تنظر إلى هذه التجربة الممتدة من مسافة عقد على بدايتها، ما هي ملامح هذه التجربة التي يبدو أنها لم تكتمل بعد، هل من استنتاجات، من دروس؟

مرزوق الحلبي: "إن ما حدث في تونس ليس مفاجئًا، لأن كل ربيع للشعوب لا يتمّ على دفعة واحدة بل من خلال ما أسمّيه "أثر الأرجوحة"؛ أي أن الأمور ستتأرجح من جهة إلى أخرى إلى أن تستقرّ على صيغة ما للاجتماع وللسياسة والدولة. هذا في رؤية من بعيد. أما إذا دخلنا إلى حيثيات الحالة التونسية، خاصة عدم قيام الرئيس المُنتخب بطرح أي بديل إداريّ دستوري سياسيّ سوى مواجهة الفساد وملاحقة الفاسدين. وضعية فراغ في الحُكم تنفذ منه "الشياطين" إذا صحّ التعبير. قد تدخل قوى إقليميّة ودولية إلى تونس لتحرف إرادة الشعب التونسيّ أو تعبث بها. ثمّة مصالح لا قِبَل لنا بتبيانها أو تتبعها قد تتجسّد على أرض تونس كما حصل في مواقع شتّى في الإقليم. خطوة الرئيس اسعيّد ناقصة الأمر الجوهريّ وهو هيكلة النظام السياسيّ والاجتماعيّ من جديد، وطرح مسار أو خارطة طريق. يُذكرنا الأمر بما حصل في دول المنظومة الاشتراكية حين تفكك النظام هناك، وتبدّلت القوى في إدارة البلاد تبعًا إلى أن رست على صيغة لا تزال تعمل. سنشهد المزيد من هذه التطورات مع الوقت في كل البلدان العربية التي طالها الربيع العربي. لكن علينا أن نحذر من فائض الأمل، لأن التاريخ لا يتحرّك على خطّ تصاعديّ من أدنى إلى أرقى، بل قد ينكسر في الشعوب التي تسير عليها. ثورات مُضادة ومصالح لجهات أقوى من الشعوب ونُخبها.

"أمّا بالنسبة للدروس، فلا بدّ من مواصلة تطوير صيغة حداثية للحكم والاجتماع، لا تنحصر في دستور أو انتخابات دورية، أو في مبدأ التداول على السلطة والفصل بين السلطات، بل في توزيع الثروات -القليلة أصلاً في تونس- من جديد على نحو أكثر عدلاً. تحدّيان كبيران ينبغي على النُخب والشعوب أن تخوضهما؛ في الأوّل: أن تُنتج صيغة لاجتماع معقول، في أساسه آليات لتصريف التوترات والصراعات، من خلال تطوير (موديلها) وطريقتها في إدارة البلاد والخير العام وعملية التنافس بين قوى المجتمع. وفي الثاني: أن تعرف كيف تحيّد الضغوط والتدخّلات الخارجية، بما فيها بحجة تقويم الاقتصاد. وهو عادة الباب المشرع التي تنفذ منه قوى العولمة إلى وضع يدها على مقدرات البلدان المأزومة وعلى مصير شعوبها".

2. دور الإسلام السياسيّ كان واضحاً في الأحداث في كل الأقطار التي شهدت مواسم الربيع العربي، وفي تونس أيضاً، وقد أُتيح لها أن تتسلّم مقاليد الحُكم في بعض المواقع -كما في مصر وتونس- لنشهد فيما بعد تفجّراً في علاقتها مع المجتمع والدولة، ما الذي يُعيق المصالحة بينها وبين الدولة والمجتمع؟

مرزوق الحلبي: ظهور "داعش" وتمدّد الإسلام الراديكاليّ و/أو العدميّ فسح المجال دولياً لقوى الإسلام السياسيّ أن تنتعش لأنها صارت -مع ظهور الإسلام العدميّ، وأقصد المجاهر بموقفه ضد الدولة القُطرية وضد النظام العالمي معًا سعيًا إلى دولة الخلافة العادلة، وما رافقها من تنظيرات نكوصيّة غيبيّة. لكنّها -كما النهضة في تونس مثلاً- عدّلت موقفها لتبدو غير عدمية وغير متطرّفة، أي حيال التطرّف، ولم تعدّله حيال المجتمع والدولة. اتّضح من سلوك حركة النهضة أنها تقبل اللعبة تكتيكياً وليس كخيار استراتيجي. حركات الإسلام السياسيّ مُصابة بمقتلَيْن بنيويًا يجهضان إمكانية أن تصبح قوى سياسية فاعلة إلى جانب القوى الأخرة في المجتمعات العربية الإسلاميّة، تشدّ نحو العيش المعقول والمدنيّ. المقتل الأوّل أنها لم تتصالح مع التاريخ -أي مع الحاضر ومع المُستقبل- لأنها لا تزال أسيرة النص المتقادم، والمدوّنة القاصرة عن الإحاطة بحركة التاريخ والتموضع فيها بأمان كقوة تُنتج وتُسهم بقسطها في إدارة عجلته. لننتبه إلى الخطاب الاستعلائي الذي تُنشئه هذه الحركات في مقابل التحديث وقوى العولمة والعلوم والمُنجزات. فإما أنها لا تعوّل عليها، أو أنها تؤصّل لها في المدوّنة الإسلامية، وتدّعي أن أساسها في الإسلام مستتراً ومتوافرًا لنا في النصّ القرآني! وجهان لعملة واحدة؛ التشاوف وعدم الإقرار بالهزيمة، والوهن والنكوص كمدخل للفعل الجماعي السياسي وسواه. في هذه الحالة لا أتوقّع من أصحاب هذا الخطاب سوى أن يُراوحوا في أماكنهم، يكرّرون وينقلون ويتّبعون، ولا يُنتجون شيئاً، لأنهم مرتاحون إلى ما كانوا أنتجوه.. بالفرضية طبعًا من قبل! أما المقتل الثاني هو أن هذه الحركات على تفاوت مشاربها، لم تطوّر أي معادلة لإدارة الاجتماع الحديث. ليس لديها في مدونتها أو نصوصها ما يحلّ مشكلة الفقر، أو غياب المساواة، أو سيرورات التصحّر والترييف، وما إلى ذلك من مشاكل الدولة القُطرية. ربّما لأن هذه الحركات لا تقبل بالحداثة نظاماً للاجتماع والدولة، ولا تقبل بمبدأ الفصل بين السلطات وبين الدين والدولة. فهي مسكونة بوهم أن الماضي كافٍ لإدارة الحاضر واقتحام المُستقبل. لكنها تعدم في واقع الأمر الحلول العلمية العملية لمشاكل المجتمع العربي أو الإسلامي، إذا شاءت، في الراهن الحداثيّ. خاصة أن الكون مليء بالتحديات المفروضة عليها. فهي ليست ضمن إمبراطورية إسلامية ممتدة "من.. إلى..."، بل هي قوى سياسية من مجموعة موديلات وقوى نافذة سياسية واقتصادية على مستوى الكون تُريد هي، أيضاً، أن تهندس الكون وتُديره وتُدير الاجتماع في هذا القُطر أو ذاك. بمعنى آخر؛ إن الهوية بوصفها وعيًا بمن أنت، كجماعة ورواية وتاريخ، شرط غير كافٍ لحصول الاقتدار والنهضة وبناء مجتمع عاقل ودولة معقولة. الإسلاميون يعتقدون أن الهوية الإسلاميّة بوصفها ثقافة وأنماط وأنساق ورواية وتجربة كافية لكلّ شيء، بما فيها للحكم وإدارة عملية الاجتماع. وهذا ضرب من الغيب والتدليس لا أعرف حركة إسلام سياسيّ لا تمارسه بهذا القدر أو ذاك. يبدو لي جليًّا أن الإسلام السياسيّ لم يتعلّم من أخطاء الأحزاب القومية العربية التي انزلقت إلى فاشية أو استبداد

* "أخطأ الإسلامويون حيث أخطأ القوميون ـ في الاعتقاد أن الهوية كافية لحلّ مآزق الحداثة والدولة والاجتماع"

أو توحّش كما في سوريا الآن، من منصّة الفكرة القومية والتعويل على التاريخ بوصفه ماضٍ مجيد. وهو كحركات سياسية لا يشذّ عن القاعدة المعروفة عند الفوضويين الثوريين الذين قالوا، ونقول معهم، إن السلطة مُفسدة وكذلك المال لأن فيهما إغراء طاغٍ. فكيف إذا اجتمعا معاً؟ وهو ما حصل في تونس وغيرها. فالإسلامويون بشر مثلنا؛ تُغريهم السلطة والمال والنِعم الأخرى. هم من طينة البشر ولو تلفّعوا بعباءات الشيوخ وعمائمهم وكرروا العظات وخُطب الجمعة على مدار الكرة الأرضية. وتونس تجربة تُثبت ذلك. وقد رأى الناس ما رأوا فعادوا إلى الاحتجاجات والشوارع. للتلخيص أقول: لا يُمكن لهذه القوى أن تُدير مجتمعاتها بنص لاهوتيّ. ستفشل في كلّ مرة تُحاول ذلك. لا مناص من مصالحة تاريخية مع الذات الموجودة الآن "خارج التاريخ"؛ بمعنى أنها مفعول بها غير فاعلة فيه، مُستهلكة للتحولات ولا تُنتجها، يقع عليها الفعل فيُنهكها أو يحشرها أو يستغلّها. إذا لم تعترف بهذا الواقع فمن المستحيل أن تغادره إلى موقع أفضل. وهذا يعني بقاء المجتمعات التي تُديرها أو تُشارك في إدارتها في مواقع متأخرة فيحضر سؤال شكيب أرسلان من مطلع القرن الفائت، من جديد: لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟ لا بدّ من الخوض في تجربة إدارة الاجتماع والدولة من خلال العقل البشريّ والموديلات التي أنتجتها الحركات المدنيّة في العالم. والتجارب الناجحة ليست قليلة كي نتعلّم منها، أو كي نقتبسها. أما نظريات الملاءمة وتعريب هذه النماذج فقد ثبت لنا أن القوميين العرب والإسلاميين العرب يُفضّلونها كي يتستّروا على الهروب من استحقاقات الديمقراطية مثلاً أو تبعات الفكرة الليبرالية.

هل ستختار هذه الحركات بوعي وإرادة الخروج من مدوّنتها والشروع برؤية العالم بعقل بارد ومنهجية استراتيجية تُحرّرنا وتحرّرها؟

3. كبرنا على فرضيات تقول بانتصار الشعوب وإراداتها.. لكننا حيال محنة حقيقية دموية، ماحقة للشعوب العربيّة التي انتفضت وخرجت من الجوع شاهرة سيفها، مجتمعات تشظّت ودول تفكّكت والتوحّش هو سيد الموقف.. لماذا يُصرّ التاريخ العربي على تزويدنا بمشاهد الموت والتهجير، ما الذي يشدّنا إلى هناك؟

مرزوق الحلبي: هذه فرضيات تغذت من عوامل تاريخية كانت فاعلة بقوة. حركات تحرّر الشعوب من الاستعمار وقبلها الثورات السياسية الاجتماعية الكبرى (الثورة الفرنسية وتلك الروسية وتلك الأمريكية) والفكرة الديمقراطية الليبرالية والحركات القومية التي نشأت ونمت منذ القرن السابع عشر وأقامت أقطارها ودولها واجتماعها، رغم المصاعب والحروب والصراعات المريرة. في هذه العوامل ما يُنتج آمالاً وأحلاماً وفرضيات "إن الشعوب إذا هبّت ستنتصر". إلّا أن هذا الإرث من الفرضيات وإن بقي وظلّ معنا لكن التاريخ غيّر من طبيعته مع الشعوب. فنحن لسنا بصدد حقبة الثورات والتحولات التي قادتها البرجوازية في مواجهة الرأسمالية ضمن ما اعتبرناه الحداثة، هذه الحقبة انتهت. لقد دخلنا من عقود في حقبة العولمة المتسارعة، وانتقلنا من الحداثة إلى ما بعدها أو إلى ما سمّاها زيغموند باومن بـ"الحداثة السائلة" -ولديه أسبابه- حداثة زئبقيّة تنسلّ من المكان وتهرب خارج الحدود. إننا حيال ما بعد القومية والدولة القُطرية، وسيكون على الشعوب أن تغيّر من فرضياتها في حركتها المتطلّعة إلى العدل النسبيّ والمساواة النسبيّة. يعني إننا لا نستطيع أن نراهن على تحويلات تفرضها الطبقة البرجوازية على الطبقة الرأسمالية لأننا حيال هيكلية جديدة للطبقات. "كي لا نُنهك القارئ بالمصطلحات سأكتفي بمحاولة لتفسير العولمة. وهو المصطلح المفتاح لفهم التاريخ بوصفه صراعًا بين قوى. العولمة في جوهرها هي حركة بدون معوقات وأنظمة حماية وطنية لكل من السِلع والخدمات وخطوط الإنتاج والعمالة والمهارات ورأس المال (انظر البورصات) والأفكار والأنماط والقِيَم. هذه الشبكة من التقاطعات والعمليات الاقتصادية الهائلة الكِبَر والمتناهية الصِغر، التي توازيها في الحجم عمليات سياسية تخلق أمام أعيننا عالماً جديداً تفعل فيه فعلها ثورة الاتصالات والتكنولوجيا العالية. هذه السيرورة التي اندفعت بقوة بعد انتهاء الحرب الباردة أضعفت الشعوب والدول ونحّفت مفهوم السيادة الوطنيّة ونفاذ القرار الوطني وكادت تُفرغه من مضمونه (وهو ادّعاء يورغن هبرماس آخر منظّري مدرسة فرانكفورت) بل أفرغته تمامًا في المجتمعات المُستضعفة. القوى المتنفّذة في زمن العولمة وفكرة العولمة ذاتها وقوى الدفع فيها تشدّ العالم شدًّا إلى استغلال مواطن الضعف والهشاشة على مدار الكرة الأرضية. حركة أخرى موازية وناتجة عن العولمة حرّرت العالم من كوابحه ومواثيقه ومعاهداته الكابحة للعنف والاستغلال والعدوان. فقد انتهت حربان كونيتان إلى سلسلة من القوانين والقواعد والمواثيق التي بدا العالم على قواه وأقطاره قابلاً بها كجزء من الدرس الإنساني الذي تمّ استخلاصه. سلسلة من الفظائع وحروب الإبادة والجرائم ضد الإنسانية استمرّت حتى مُنتصف القرن العشرين، الأمر الذي دفع الفكر السياسي والاجتماعي إلى ابتداع المواثيق والقوانين وسلسلة لا نهائية من النُظم المتفق عليها للحدّ من كل هذا. وأرانا الآن ما بعد هذه الكوابح وهذه الضوابط، وأن العالم فكّ أسر نفسه منها واندفع بفعل العولمة إلى مرحلة جديدة من الصراع على الموارد والمواقع وخطوط الملاحة والتجارة والبحار والمضائق والممرات البحرية ومصادر الطاقة والأسواق.. وهذا كلّه في صلب سيرورة العولمة. انتقلنا إلى صراع مكشوف حول ما ذكرت، وهو صراع متنقّل نشهد آثاره وتمثيلاته في الإقليم العربي على نحو يجعل من فرضياتنا عن انتصار الشعوب مجرّد إرث تقادم. أما ثورة الاتصالات، وإن بدت لنا سلاحاً في أيدي الشعوب (انظر ما أشيع من خطاب بهذه الروح بعد ثورة الشعب المصري ضد حكم مبارك) لكن لديها وجه آخر؛ وهو أنها وسائل نافذة للسيطرة والاستحواذ، خصوصًا على الوعي وتصميمه على نحو يُتيح لمراكز القوى "صناعة الرأي" و"كيّ الوعي" العام للناس وللجماعات على نحو يخدم قوى الإنتاج ومراكز إنتاج العولمة وسيروراتها.. أمر لافت أيضاً في هذه السيرورات هو أنه إذا كانت الحركة القومية العالمية محرّكًا لبناء مجتمعات وتسوية صراعاتها وتوتراتها الداخلية لضمان نوع من التجانس في الدولة القومية، جاءت العولمة لتفكك وتشظّي المجتمعات في إطار إضعاف الدولة القومية والقرار الوطني والاجتماع ليتيسّر لها تحقيق مصالحها وأهدافها داخل الدول وعبرها. بمعنى أن سيرورات العولمة المتعدّدة المستويات تعمل بشكل تلقائي وبشكل مدروس على تفتيت الكيانات الدولانية والتعامل معها كقطاعات ومجموعات استهلاكية أو كمجموعات تستثمرها في مشاريعها الكونية أو الإقليمية. فلننتبه إلى ظاهرة جيوش المرتزقة أو استعمال مجموعات مُعدمة -السوريين مثلاً- في حروب تركيا في ليبيا أو في حروب الروس في مواقع أخرى. ما أريد قوله بناء على الاستعراض آنف الذكر إن عوامل تفتيت الشعوب في كل مكان أكثر من عوامل توحيدها. لا تنتصر الشعوب بدون أن تطوّر وتفعّل نوعًا من الإرادة السياسيّة الجامعة، وهو ما تستهدفه مراكز القوى وتنجح كما نرى في ضربه أو إبقائه تحت السيطرة. في كل هذه السيرورات تتبدّى الشعوب والمجتمعات العربيّة هشّة ولقمة سائغة خاصة وأنها مستهدفة لأن أراضيها مُترعة بالموارد والمصالح كالتي أشرنا إليها. أشير بناء على دراستي وتأملاتي في فكرة الدولة إلى أنني في سبيل الاستنتاج بأن سيرورات العولمة لن تتردد في شطب دول وتغيير خرائطها وحدودها، لأنها تملك القدرة على ذلك. صارت الدولة في كثير من الأحيان ظاهرة اسمية لا فعلية؛ سوريا والصومال والعراق وليبيا واليمن ولبنان، مثلاً. نحن على

* "علينا الانتباه أن سيرورات العولمة تحمل كل عوامل تفكيك نسيج القوميات والجماعات عكس الفكرة القومية التي حملت عوامل الوحدة والتجميع، وعليه فإن مهمات الشعوب والمجتمعات لا سيما المُستضعفة صارت أصعب"

طلعنا عالحرية تحاور الكاتب مرزوق الحلبي:

بعد مئة عام وأكثر عن اتفاقيات سايكس - بيكو (1916)، وقد رأينا أنه لم يبقَ منها سوى الخطوط على الخريطة. إثبات على أننا في حقبة أخرى يحدث فيها كل شيء، ويتحرّك التاريخ على حساب الشعوب وبهزيمتها - مؤقّتا.

4. كيف تنظر إلى العلاقة بين "الموضوعي" و"الذاتي" وبين "الداخليّ" و "الخارجيّ" فيما حصل، أو هل أمكننا الفصل بين العوامل الذاتية -الثقافية السياسيّة الاقتصادية والمعرفية- وبين العوامل الوافدة من الخارج؟

مرزوق الحلبي: "الفصل بين هذه العوامل إذا تمّ فهو فصل اصطناعيّ ولغرض النقاش. لأن كلّ هذه العوامل تتداخل أكثر وأكثر مع سيرورات العولمة وتقاطعاتها اللانهائيّة. مع هذا علينا كعرب أن نسأل أنفسنا أسئلة صعبة. أن ننقد ذاتنا الجماعية وثقافتنا ونعرّضهما للحفر الذي لا يُحابي. لقد فشلت النُخب العربيّة في العموم في إدارة الدولة والاجتماع المدنيّ لأسباب تتصل بها وأخرى بشروطها÷ وهي شروط الإقليم أو السياسات الدولية. فشلت لأسباب تتصل بها وبثقافتها: عوامل ذاتية. فشلت في عملية بناء الحياة المدنيّة التي لا تقوم إلّا بتكريس المدينة والحاضرة. ورأينا أن العكس هو الذي حصل. فقد تريّفت المُدن العربية بسبب من الهجرة إليها من الأرياف والمناطق النائية. صحيح أن الحركة حصلت في نيويورك ولندن وباريس وطوكيو.. لكنها توازت مع سياسات وطنية متعددة المستويات لمعالجتها تلافت انعكاساتها، وهو ما لم يحصل في الحالة العربية. إن حالات الهدر للموارد في المجتمعات العربية ظلّت عالية بكل المعايير، وهو ما يعني أن المال العام الذي من المفروض أن يُستثمر في الدولة وصيانتها وتطوير خدماتها وبُنيتها، لم يصل إلى غاياته، بل دخل إلى حسابات شخصية أو تمّ تهريبه إلى الخارج. كما أن الموارد البشريّة العربية تم هدرها كجزء من إهدار الإنسان العربيّ وجعله رهينة الاستبداد أو مشاريع شمولية أو قهرية قابضة أو قاتلة، كما في سوريا. أمر آخر هو الإرادات السياسية التي ذهبت في اتجاهات لا تمتّ بصلة إلى مفهوم دولة المواطنين والمؤسسات والحداثة. أجزم أن الإرادات السياسية لم تصوّب على بناء الدولة وتطويرها بقدر ما صوّبت إلى تحقيق مصالحها هي ولو على حساب شعوبها ومقدرات هذه الشعوب. في سوريا مثلاً، لم يتمّ تطوير الصناعات التقليدية ولا تحديثها. ولم تتمّ حركة التمدين إلّا على مقاسات الطغمة الحاكمة وهي طغمة طائفية وإن قالت بالعروبة والقومية. الأنظمة العربية على العموم بدل أن توضح غاياتها ومناهجها التحديثية المدنيّة؛ المواطنة والمساواة أمام القانون والحقوق الدستورية للناس وتكافؤ الفرص للجميع، فقد موّهتها وجعلتها مُبهمة بارتكازها مرّة على التديّن الشعبوي، ومرّة على العشيرة والطائفة والهويّات المناطقيّة والعرقيّة والدينيّة.. هذه البُنى التقليدية تعززت وازدهرت، الأمر الذي أفضى إلى ولاءات متعددة للفرد؛ فلم تعد الدولة أمّه وأباه سوى كهدف لقمعها ومباحثها. راعني من قراءاتي الآخيرة وتأملاتي أن أكتشف أن كثيراً مما قُلناه عن "النهضة العربية" و"مطالعها" في نهايات القرن التاسع عشر كان غير دقيق وغير علمي إذا صحّ التعبير. لقد حصل تضخيم لهذه الحالة فوق حقيقتها التاريخية. فخطاب النهضة طال فئات محدودة جداً في المراكز العربية خاصة لأن انتشار الكتب والجرائد كان محدوداً؛ بضع آلاف نسخة من أوسع الجرائد انتشارًا في مصر، وأن معظم الناس كانت أمّية لا تتداول الخطاب ولا مفرداته. وخاصة أن المجتمعات العربية برمتها كانت في غالبيتها الساحقة مجتمعات زراعية وريفيّة. ولا يزال بعضها كذلك أو هي انتقلت إلى مجتمعات تعيش من اقتصاد ريعي غير منتج ولا يغيّر من البُنى الاجتماعية التقليدية. ما دامت النُخب قرأت تاريخها وأوضاعها قراءة خاطئة أو منقوصة، فإننا لو سلّمنا بمشاريعها النهضوية فإنها سوف تضلّ التطريق إلى سُدرة المنتهى. في مستوى آخر، لم تستطع الأنظمة والمجتمعات العربية من إدارة علاقاتها بالعالم بشكل نافع كنتيجة مباشرة لعدم قُدرتها على إدارة نفسها في الداخل. أي أن الخلل الداخلي هو في نظر القوى الخارجية فرصة يُمكن النفاذ منها إلى تحقيق مصالح تجارية واقتصادية واستراتيجية. لأن جوهر المجتمعات العربية في ظلّ الإسلام كخطاب ومدوّنة وعقلية وموديل، ظلّت المجتمعات العربية متخلّفة عن الركب. فقد أدت هذه العوامل إلى فقر معرفي، لا سيّما في العلوم الاجتماعية العملية التي لم تتطوّر إلّا قليلاً. بالمقابل، وخلافًا لحركة النقل عن الغرب في بداية النهضة العربية، امتنع العرب عمومًا والإسلاميون تحديداً عن التعلّم من المركزية الغربية لأسباب هويتية وتاريخية ممتدّة منذ الحملات الصليبية. وهو أمر أفضى إلى فقر في هذه العلوم والمعارف، وإلى نقص شديد في الموديلات والآليات الضرورية لهيكلة المجتمع والاقتصاد وإدارة الاجتماع. فكان النكوص إلى استعمال العنف أو موديل "الأنظمة الشمولية" محصّلة حاصل. كي تصحّ الرؤية علينا أن نشير إلى أن النُخب العربية هي المسؤول الأول والأخير عمّا حلّ بشعوبها خاصة بعد الاستقلال. إن صانع السياسات في العالم العربيّ فشل وأخفق وعلّق الأسباب على شماعة الغرب أو القوى الخارجيّة. فشل الخيار الديمقراطي هو فشل عربيّ في سياقنا هذا، لأن الديمقراطية ظلّت بعيدة عن ذهنية هذه النُخب التي واجهت الاستعمار بعقلية ثورية انقلابية لا تحويلية. قوامها العنف أو حرق المراحل. إقامة كل هذه المسالخ البشريّة في سوريا وشنّ حروب إبادة متوحّشة ضدّ الناس من درعا حتى إدلب، هو في الأساس من طبيعة النظام الشمولي. أو هي من طبيعة نظام أقلّوي يحرق البلد وأهلها كلّما لاحت بارقة تغيير في سلطته. وهذه الظواهر تستعملها الدول الخارجية وقوى العولمة لتحقيق مصالحها. وهي تستثمر الفرص إذا نشأت وقد تلجأ إلى خلقها إذا استطاعت. بمعنى أنها ليست بريئة من دم الشعوب العربية ومآسيها. لقد اعتادت الدول العربية بعد الاستقلال على اعتماد خطط خمسية ورباعية وعشرية وما إلى ذلك في إطار مناهج وموديلات اجتاحت العالم بعد الاستعمار. إلا أنها في غالبيتها ظلّت بدون بنية اقتصادية متينة أو قابلة لحمل المجتمع بأمان. لم يحصل التحويل الاقتصادي المأمول الذي يضمن مستوى معيشة معقول وتوزيع الثروات، التي قد تكون محدودة، على نحو عادل ولو بشكل نسبي. لقد أرادت النُخب الحاكمة أن تضمن مصالحها وسؤددها وأن تُخفي فشلها وإخفاقاتها التاريخية بالقهر والعنف. وهو ما نحصده إلى الآن.

5. ينحو البعض في العالم العربي وفي خارجه إلى اتهام الثقافة العربية بقصورها، إلى الحفر فيها لكشف أسباب العطب. يذهب آخرون أبعد من ذلك إلى نوع من جلد الذات وتحقيرها وتبخيسها وإنهاء كل نقاش بالقول: "لأننا عرب"، "لأننا مسلمون" لن تقوم لنا قائمة!

مرزوق الحلبي: أنا شخصيًّا أمقت لعن الذات وأعتبره مقتلاً من مقاتل العربيّ المُنفعل بسبب من التخلّف والقهر. وأرى ذلك من نتائج الشعور بالقهر حيال العالم والآخر. من الأنساق الذهنية القابضة في حالات القهر. هي نتيجة أن تفقد الثقة بأنك بشر كباقي البشر، وأنك قادر مثلهم، وأن لا شيء ينقصك، وأن مجتمعي يستحق وجدير وقادر. حالة هي نتيجة قرون من الشعور بالقهر. وجه آخر من هذه النسق الذهني الفكري العملي هو تلك النزعة الاستعلائية تجاه الغرب أو تجاه كل ما هو ليس عربيّ أو إسلاميّ. لعن الذات يُعفي صاحبه من أي واجب وفعل. والاستعلاء، أيضًا، يُعفيه من بذل الجهد لإحداث تغيير. فالاستعلاء يمنحه شعوراً بالتوازن حيال

* "النُخب العربيّة على مشاربها أخفقت في استثمار حقبة الاستقلال وما بعد الاستعمار لا سيّما في التأسيس لبنية اقتصادية تحمل المجتمعات إلى مواضع الأمن والاستقرار"

* "الاشتغال بالتراث والتاريخ ينبغي أن ينحصر في تبيان أسباب الهزيمة والتخلّف، ليس في ماضي العرب ولا الإسلام ما يُمكنه أن يحلّ أبسط مشاكل المجتمعات الحديثة، لا معرفيًا ولا عمليا"

*" شهدت الثقافة العربية آخر تحديثاتها في العصر العباسيّ و"النهضة" حقبة قصيرة كانت محصورة في نُخبة محدودة جدا في مجتمعات زراعية وأمّية في غالبيتها"

الآخر، وبأن الأمور على أفضل ما يكون. ولننتبه كيف تتحول نقائص العربي كلّها إلى فضائل ضمن هذا الخطاب. ما يبقى هو فعل حفر جاد في ثقافة العربي وهويته وإرثه ومدوّنته. عليه أن يتخلّص من شعور القهر أولاً. وهي عملية لن تحصل بفعل خارجي بل بفعل ذاتيّ. أن يعترف بنواقصه وإخفاقاته كشعب ومجتمع وديانة وثقافة. أن يتصالح مع ذاته ويرممها ويحميها من الوقوع في شرك التأرجح بين نقيض ونقيض. هذا لن يحصل دون مواجهة بين الفكرة العلمانية والدين أو بدون إصلاح ديني شامل. صحيح أن فلاسفة مسلمين وعربًا حاولوا واقترحوا وجرّبوا.. لكن المؤسسة العربية ظلّت مؤتمتة بنظام العقلية الإسلامية والتاريخ العربي المجيد. ما حصل للفكر الإسلامي حصل للفكر القومي العربي، أيضًا. هناك وهنا ظلّ الخطاب المُهيمن خطابا سلفيًّا ماضوياً. من هنا دعوتي الصريحة إلى القطيعة التامة مع التراث ولو لحقبة زمنية. فهذا الاشتغال المرَضي بالتراث وهذا الانغماس بالمدوّنة كمصدر لإنتاج الحلول والمخارج كارثيّ، لأنني لا أرى أي طائل من هذا الانشغال إلّا إذا تمحور في تبيان المعوقات وأسباب الفشل. التعامل مع التراث كسبب للهزائم يُفيدنا، أما غير ذلك فهو تكريس للتخلّف والقهر، وتكريس العرب مضحكة العصر. علينا أن نعترف أن العطب في الجذر. في الثقافة التي لم تتجدّد معارفها ولا علومها ومعارفها منذ العصر العباسيّ. أكثر من ألف عام من التكرار والنقل والاتّباع. لنأخذ مثالاً اللغة العربية كم هي جامدة لدى المؤسسة الرسمية اللغوية والسياسية. كم هي مغلقة أمام أهلها. كم هو معجمها فقير ومحدود الأفق. كم هو التعامل معها يُشبه تعامل المجتمعات العربية مع المرأة؟ هناك ضرورة لتجديد المعارف العربية من خلال اعتبار معرفة الإنسان معرفة للعرب، أيضاً، ولا ضير في استخدامها في إدارة الاجتماع وليس فقط في تحقيق رفاهية الأمراء والطواغيت كما هو حاصل. على العرب أن يدخلوا التاريخ من جديد على أنهم كباقي شعوب الأرض لا أقلّ ولا أكثر. ليسوا "خير أمّة أُخرجت للناس" لكنهم ليسوا أقلّ من أي أمّة أخرى"

6. المخرج.. سؤال المليون دولار، أو السؤال الذي يجرّه العرب منذ مطالع النهضة في أواخر القرن التاسع عشر، أي منذ ظهرت ملامح أمّة ومجتمعات على عتبة الحداثة؟

مرزوق الحلبي: هي محاولة منّي لقول ما لا يُقال في العادة. خضتُ في السنوات الأخيرة في تجربة شخصيّة جدًا ومعلّمة جدًا. تمثّلت في التعاون مع مؤسسة بريطانية متخصصة بالتدخّل في مناطق النزاعات تعتمد منهجيات الاستشراف ودراسة المستقبلات. استكملت عندها في محاولة لإطلاق مشروع تجريبي في فلسطين الداخل. عندما أردت تطبيق ما درست وجدت أن خيرة أبناء مجتمعي تعارض قبول لعب تخطيط المستقبل ودراسته ورسم سيناريوهاته، على اعتبار أنهم جميعاً -وأنا معهم- كنّا مصوّبين على حلّ الدولتين كمنظومة سياسية وفكرية وذهنية. لم نستطع تجاوز حدود هذا النسق، غلًا في اللقاءات الخامسة والسادسة. يومها، أدركت كم هي الأنساق السياسية، وفرضيات العمل المتقادمة تعيق مجرّد التفكير في المُغاير وفي الممكن المختلف وفي المستقبل. بمعنى أن النُخب العربية أسيرة فرضيات تقادمت وأن عقائدها وأيديولوجياتها صارت كومة من الخردة تربض على صدرها وفكرها ولغتها، ينبغي التخلّص منها كي تتحرّر من وهمها. في ختام تجربتي المُشار إليها انتهينا إلى تقرير استراتيجي يقوم على رسم سيناريوهات ممكنة للصراع الإسرائيلي-الفلسطيني (العربي). نتبناه بلغة استراتيجية باردة تأتي من فوق العقائد والإيديولوجيات، وتعتمد العقل العلمي المفكّر، وقاعدة بيانات جافة تتجاوز خطاب الأمنيات والرغائب. حدّدنا نقاط الضعف ومكامن القوة، وخارطة الأعداء والأصدقاء، وعوامل ميسّرة وأخرى معيقة إلى آخر التفاصيل. عندما قرأنا ما وضعناه شعرنا شعورًا جماعيًا بالتحرّر. كان نصّنا العقلاني محرّراً لنا بامتياز. وخلصت إلى كتابة مقال بعنوان مشابه هو "النص الاستراتيجي بوصفه نصًّا تحريريًا بامتياز". للقول إن إعمال العقل الجاف -إذا صحّ التعبير- حرّرنا من الانفعالات واعتبارات: نحبّ ونكره ونتمنى، وجعلنا نعرف ما نُريد وما نستطيع، وكيف نفعل ذلك. بالمناسبة، عندما أردت تحضير مواد مساعدة لمجموعتي باللغة العربية وجدت مقالاً واحداً مترجماً عن الإنكليزية يتحدّث عن علم الاستشراف. وسرّني كثيراً أن أكتشف قبل عامين مجلة "الاستشراف" الصادرة عن معهد الدوحة. أعترف أنني قرأت ثلاث مجلات كاملة منها في أسبوع واحد. لقد ولّدت لدي أملًا خاصة، وأنني أعرف نماذج لإبداعات عربيّة في كلّ مجال ومجال بما فيها علم الاجتماع، لكنها إبداعات لا تزال فردية متباعدة ولم تتحوّل إلى "ثقافة" و"خطاب" معتمديْن. "لا مناص من إعادة العقل العربي إلى الواجهة كمحرّك أساس؛ ولا أقصد العقل الذي تحدّث عنه الجابري، بل ذاك العقل البديل للغيب والشعوذة، العقل المدبّر والفاعل والقادر، البديل للنصوص والمقدّس والمدوّنة، العقل البشري البديل للخلاص الإلهي السماوي، العقل العلمي العمليّ، البديل لعقل أسير النص والقصص والخرافة. العربيّ في نهاية المطاف بحاجة إلى السؤال وليس إلى الإيمان. كأن ثورة الشك قفزت فوق العربي فظلّ على إيمانه. ولفت انتباهي أن الثقافة العربية في العصر الحديث توقّفت عند الحداثة ولم تعتمد نقد الحداثة. توقّفت عند الدولة القطرية ولم تخض في تجربة نقدها وتطويرها. حتى الآن ناقشنا من داخل علم اجتماع وسياسة الدولة القُطرية. وقد يكون علينا أن

* "فرضية أننا خير أمّة أُخرجت للناس تشبه فرضية أننا الأفضل لأننا مسلمون وكلاهما ضرب من الغيب والهرطقة"

نناقش من خلال علم اجتماع وعلوم سياسة حقبة العولمة. لفت نظري في علاقاتي الشخصية مع مثقفين عرب، وفي الخطاب الثقافي العربي، أن مثقفين غير إسلاميين علقوا في فخ التوجّهات الإسلاموية القائلة إن المسلمين أفضل من سواهم، لأنهم مسلمون فقط. لأنّهم يدينون بدين الإسلام، ولأنهم يحجّون ويصومون ويؤدون الفرائض! من فهم كهذا للذات والوجود لن نتقدّم سوى إلى نكبة بعدها نكسة. أنت لست أفضل لأنكّ مسلم، ولأن طابع المجتمع إسلامي، ولا هذا الاعتبار يُحرّرك من واجب بذل الجهد الواعي والمدروس لإنتاج العيش الآمن والاجتماع المعقول. وبالقدر نفسه أنت لست عاجزاً ولا مقهوراً لأنّك مسلم، وفي مجتمع إسلامي الطابع وتدين بالإسلام كما يُحاول إقناعنا البعض. لا مناص للعربي كجماعة من مواجهة جرحه النرجسي، كما وصفه الصديق الراحل جورج طرابيشي. لا يُمكنه إلّا أن يخضع طوعًا لمقاربات فرويد وثورته في فهم الإنسان لذاته. وكما أشرت سابقًا، العربي كباقي البشر لا أقلّ ولا أكثر. من هنا تبدأ المسيرة. وحبّذا لو طالت حقول حياته كلّها لا سيّما لغته وثقافته القاصرتيْن في كل ما يتّصل بمعارف الحداثة والاجتماع الحديث المعوْلم، وما بعدها لا سيّما ما يتّصل منها بالاجتماع الحديث والدولة الحديثة.

الديمقراطية: الحاجة الغائبة

أوس المبارك

مع الإجراءات الاستثنائية التي أعلن عنها الرئيس التونسي الشهر الماضي في اجتماعه مع القيادات العسكرية والأمنية، وهو مما لا تخطئ قراءتَه عينٌ ديمقراطية، بدا واضحاً أن تجربة آخر بلد عربي من بلدان الربيع العربي تم تقويضها لصالح عودة العسكر والقوى الأمنية للسيطرة على الحياة السياسية. لينتهي بذلك المسار الديمقراطي الوحيد الذي صمد عشر سنوات وأعطى أملاً لبقية المنحازين للثورات على الأنظمة المستبدة بقابليته على التحقق في بلدانهم أيضاً، برغم ما عانوه من سحق عسكري، سواء تحقق لديهم شعار (إسقاط النظام) أم لم يتحقق.

ذلك الشعار الذي تفرّد بالاتفاق عليه من جميع المنحازين للثورات، واختلفوا على جميع ما دونه، بدا عامل قوة في ثورات وعامل ضعف في أخرى بتأثير عوامل سنرِدُ عليها. المقصود هو أن التمحور حول (إسقاط النظام) الذي بدا مسبِّباً لإنجازات اتضح أنها مؤقتة، كان جلياً في حالات أخرى على عدم كفايته لإنجازها، عدا عن إنجاز نظام قادر على تحقيق سبل الحياة الكريمة والعادلة في الحالتين.

والحال أن الشعوب التي انتفضت ضد واقع التردي السياسي والمعيشي، يائسةً من قدرة الأنظمة الحاكمة على نقلها إلى أحوال أفضل، علاوةً على توغلها في الفساد والممارسات التمييزية وقمع أي صوت يعلو ضد ممارساتها، والتقتْ بذلك مع أحزاب سياسية وحركات ونشطاء على رغبة في المشاركة السياسية والتأثير في الشأن العام، واجهتْ مع الوقت قصور الشعار وحده في إنتاج تجاوز للواقع الذي قامت ضده الثورات. ودخلت القوى السياسية في مسألة (كيف نحكم؟) من أجل تحديد (من يحكم؟)، لا من أجل الكيفية ذاتها. وانخفضت عتبة الصراعات الإيديولوجية بين التوجهات السياسية، إسلامية كانت بكل تفرعاتها أو علمانية من أقصى اليسار إلى الليبرالية، في وجه ارتفاع عتبة التماس ما قد يفضي إليه واقع زيادة تدهور الأوضاع الاقتصادية والأمنية التي لا مفرّ منها وتفرضها الصدمات الكبرى مثل الثورات بأي حال. هذا ما جعل ما يسمى بقوى "الثورة المضادة"، مدعومةً من المحور (الإماراتي – السعودي)، تستغل الصراع الإيديولوجي لتنتصر لإحداها وتكسب تأييدها، ولتنفذ من هموم المعيشة التي تتثاقل يومياً على عموم السكان، اقتصادياً وأمنياً، فتفضي إلى العودة للسيطرة على الدولة. وبالطبع، فالغائب الأكبر عن ذلك المسار هو الديمقراطية.

والحال أنه برغم ظهور الإسلاميين كمدافعين عن الديمقراطية في الحالتين التونسية والمصرية في وجه القوى العلمانية التي هللت لإزاحتهم عن الحكم دون استشعار واضح لخطر هذا المسار "الثوري المضاد" بسبب أولوية الصراع الإيديولوجي على ترسيخ الديمقراطية كما ذُكِر، فقد كانوا في دول أخرى أول المنقضين عليها، كسوريا وليبيا. علاوة على أنهم اتخذوا من الديمقراطية مساراً إجرائياً لا مبادئ ديمقراطية فيه سوى صندوق الاقتراع، فسمحوا لأنفسهم بتجيير المؤسسات الإدارية والقضائية لنفوذهم السياسي، متجاهلين المبادئ الديمقراطية التي لا تبيح ذلك، وأنشؤوا إدارات ومؤسسات وأذرع لتضمن ولاءها، وشرّعت القوانين لتجذير وجودها وتهميش غيرها، أو شرَعت في ذلك في بعض الحالات دون أن تحققه ودون أن يخفى التشابه النوعي بين القوى الإسلامية جميعاً، وإن اختلف كمياً في تحقيقها لمشروعها الساعي للتحول إلى "حزب قائد للدولة والمجتمع"، مدعومةً كذلك من المحور (القطري – التركي) المدعي الدفاع عن الديمقراطية.

وقد ظهر من خلال السنوات العشر الغابرة وما جرى فيهما في الاتجاهين (الثوري – الثوري المضاد)، محاطين بالقوى الإقليمية والدولية المتدخلة، أن تلمّس الحاجة لترسيخ ديمقراطيات للانتقال إلى أوطان حرة وكريمة وعادلة تهمّش أو غاب فيها الفعل السياسي. وإن كانت هناك قوى ديمقراطية تدرك أهمية ترسيخها ونتائجها على المدى البعيد، إلا أنها بقيت أصغر الفئات بين المتصارعين (إسلامياً – علمانياً) والدول الراغبة بإيجاد أنظمة موالية لها، وعموم السكان الذين تقع همومهم في الحال اليومي المتردي ويريدون حلولاً سريعةً تؤثر في واقعهم. وإن كان المسار الديمقراطي الذي يفضي إلى الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية وفصل السلطات ومكافحة الفساد وترسيخ المبادئ الديمقراطية غير الإجرائية -أو ما يصطلح بتسميتها المبادئ فوق الدستورية- تتطلب الانطلاق في المسار الإجرائي وإنتاجها مع الوقت ومع التطور الحر للمجتمعات، إلا أنه لا يمكن في أي وقت تحييد العناصر المضادة لها في الاتجاهين (الثوري – الثوري المضاد).

لذا، وبعد هذه السنين العشر التي انتهت

فيها كل تجارب الديمقراطية في بلدان الربيع العربي، يبدو أن توسعة القاعدة الديمقراطية بين القوى السياسية والفئات الاجتماعية لتشمل المبادئ غير الإجرائية التي تضمن فصل القوى السياسية عن التغول المؤسساتي، وفصل السلطات عن بعضها، ووضع قاعدة مواجهة المشاكل بأدوات دستورية وقانونية فوق الحلول الاقتلاعية والانقلابية، وكون كرامة الإنسان وحقوقه فوق التفسيرات الغيبية والماضوية والبراغماتية، هي ألحّ ما يجب أن تعمل القوى الديمقراطية على خوض النضال من أجله.

وإن كان ذلك النضال يتشابك مع قضايا كالإصلاح الديني ومواجهة الثورات المضادة واقتراب أكبر من حاجات المواطنين وهمومهم، التي قد لا تبدو على ارتباط مباشر برغم أنها تقع في صلب الهدف الديمقراطي، ما يجعله يبدو حملاً أكبر من قدرتها، إلا أن الانشغال المعرفي فيه والنشاط باتجاهه يبقى المجال الوحيد الممكن في واقع استيلاء "الثورات المضادة" على السلطة، وجنوح معظم القوى العلمانية لتأييد إجراءات غير ديمقراطية في مواجهة قوى غير ديمقراطية... مثلها.

وعسى أن تنتج السنوات أو العقود القادمة تحولات ديمقراطية، ربما لا نكون من أبنائها.

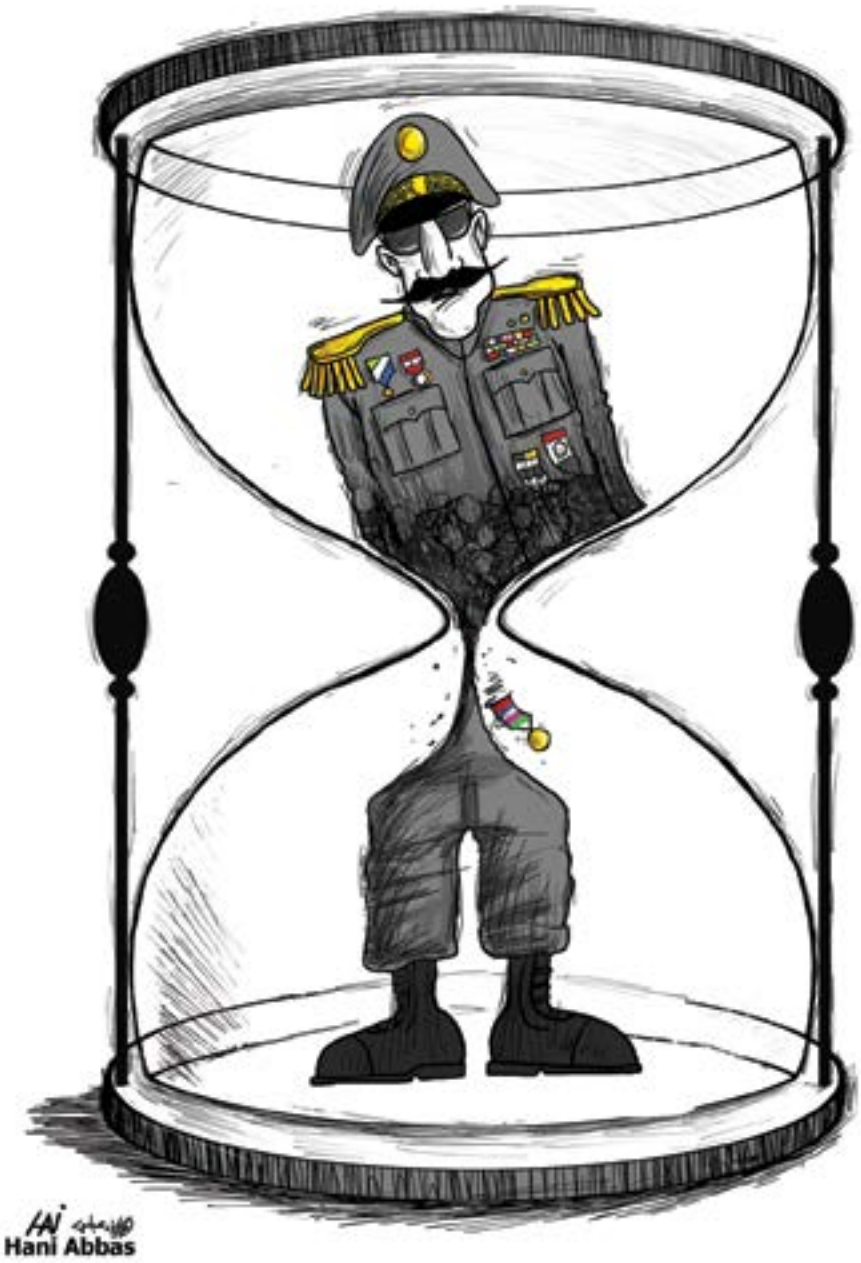

رحلةٌ في الخراب:
مع محمد برّو في سجن تدمر

مصعب الحمادي

عندما أدرك رئيس الفرع "غازي كنعان" أن هناك خطأً ما، سحب السجين "محمد برّو" من أذنه بشدة وعاد به إلى حجرة القاضي عام 1980 ليقول:
"ابن القحبة هذا ما يزال حَدَثاً، ولا يجوز عليه حكم الإعدام لأنه لم يبلغ الثامنة عشرة".

تمّ تخفيف الحكم من الإعدام إلى عشر سنوات مع الأشغال الشاقة، وعاش محمد برّو ابن السابعة عشر عاماً إلى اليوم، ولكن ليس قبل أن يمرّ بثمان سنين من الجحيم الأرضيّ في سجن تدمر في الصحراء السورية.

محمد برّو اليوم من ألمع وأجمل المثقفين السوريين المقيمين في اسطنبول، كاتب غزير في العديد من المواقع، وموثّقٌ أمين سيدخل التاريخ بكتابه الذي سجّل فيه يوميات من انتهى بهم الحظ للعيش أو الموت في سجن تدمر، الذي أشرف عليه حافظ ورفعت الأسد، وأعوانٌ لهما من عصابةٍ عائليّةٍ وطائفية تمكّنت من رقاب السوريّين باسم الدولة.

السفر عبر صفحات كتاب "ناج من المقصلة" لمحمد برّو الصادر عام 2020 هو رحلةٌ في الخراب. صحيحٌ أن الخراب في سوريا واسعٌ مكانياً، من القامشلي للجولان، وزمانياً، منذ عام 1963 وحتى اليوم، لكن تجربة محمد برّو ورفاقه في سجن تدمر هي خرابٌ مكثّف، هي ظلم وقهر ملايين السوريين يتجرعهما إنسانٌ واحدٌ دفعةً واحدة وفي مكانٍ واحد.

لم يشفع لمحمد برو أنه كان ما يزال طالباً في الثانوية يوم تداول مع رفاقه جريدةً ممنوعة؛ فعصابة حافظ الأسد كانت في معركةٍ دامية مع عصابةٍ أخرى هي جماعة الإخوان المسلمين، وما برحت العصابة الأولى تبحث عن أفرادٍ ممن يمكن حسبانهم على العصابة الثانية (حتى وإن زوراً) حتى تسومهم سوء العذاب وتنتقم منهم وتجعلهم عبرةً لمن وراءهم. وقع المسكين محمد برّو ضحية تلك الدوامة من الكراهية الطائفية المتبادلة، مع أنه لم ينتمِ للإخوان المسلمين، ولم يحمل فكرهم، ولم يكن يعرف يوم التقط جريدتهم، جريدة "النذير" من مدخل بنايته أنها أخطر من قنبلة، وأنها ستسوقه إلى عشر سنين من السجن بلا ذنبٍ ولا خطيئة.

في سجن تدمر، وقع محمد ضحية انتقام تنزله عليه سياط مجرمين وحاقدين لا يرون الوطنَ والمواطنين إلا من خلال طاقةٍ طائفية ضيّقة. لم يكن يفهم بداية الأمر؛ لماذا صار اسمه عند الجلادين "أبو بكر" تارةً، و"عمر" تارةً أخرى! احتاج الأمر منه شهوراً ليدرك أن القضية بالنسبة للجلّادين ومن وراءهم لم تكن جريمةً سياسية ارتكبها في حقّ الوطن، بل قصة كراهيةٍ طائفية كان على الغلام أن يحمل تبعاتها كما حمل المسيح صليبه. تلقى محمد حفلات تعذيب يومية على مدى ثمان سنوات، واسترق النظر إلى مشاهد الإعدام الشهيرة في ساحات السجن الصحراوي النائي عن العالم.

لقد جسّد محمد من خلال تجربته محنة كل إنسانٍ قدّر له أن يولد في سوريا في ظل حكم الأسد الأب أو الابن؛ فالولادة في بلدٍ تحكمه عصابة هي رأس المحنة ومبتدؤها بالنسبة لأي إنسانٍ له نوازع طبيعية نحو العدالة والحريّة. وما كل نجاة من حبسٍ أو تعذيبٍ أو قهر إلا من طوالع الحظ التي لم ينلها محمد، الذي عبَر تدمر، وعاد لنا بالحكايات؛ لعلّنا نذّكر فلا ننسى أننا نعيش كلنا في الخراب، حتى وإن لم ندخل السجن، وأن في سوريا التي ولدتْ مريضةً قبل مئة عام لا توجد دولة، وإنما عصابةٌ تمارس الجريمة المنظّمة.

وما أحداث ثورة الكرامة منذ عام 2011 حتى اليوم، وما تلاها من تدميرٍ شاملٍ للأرض والإنسان في سوريا، إلا تصديق على تجربة محمد برّو، وتأكيد على أن المقصلة ما تزال تتربص بكلّ السوريين ما لم يحصل التغيير المطلوب في بلدهم.

سوريّون.. بين الاستهلاك والجمال

يوسف صادق

في قصة العيون المشرعة لإبراهيم صموئيل، يقع المعتقل بين حدّين بلا نهاية، إمّا أن يحتفظ بالخمسين ليرة التي أودعته إيّاها زوجته تعويذةً للحظ وأملاً تعينه على قهره إزاء السجّان، أو أن يضحي بتلك الورقة لصالح المعتقلين، وقد تبقي على آخر رمق لدى أحدهم.

هذه صورة عيانية لما يحدث في مجتمعاتنا حينما تتحوّل لمعتقلٍ كبير، هل بتنا نتعامل مع أشيائنا والآخرين بدوافع وقيم استهلاكية؟ وهل يفقد المقهور كل قيمة جماليةً؟

تسود القيم الاستهلاكية حينما يصبح المتاح بعيداً عن متناول الأيدي، قريباً من خيالٍ يحاول احتضانها لتبقى منه دماً للحياة. الفقر والتشرّد ليس جديداً على مجتمعاتنا، عمره بعمر اغتناء سلطة داست على كل جميلٍ بدواخلنا.

الاستهلاك صفة مشتركة للطغاة والإنسان المقهور. الطاغي كلّما زاد خوفه من مقهوريه، يزداد ابتعاداً خلف قصوره وخلف سياراته الفارهة، محاولاً جعل الناس مُقلّدين له، فيضمن رهبتهم وتابعيّتهم. وبقدر الاستهلاك للروح وللعلاقات الإنسانية، بقدر الابتعاد عن الطبيعة البشرية الفطرية وعن الجمال والإبداع.

الاستهلاك معركةٌ لا إنسانية لا ينتصر فيها إلّا الطغاة ومَن شاكلهم. أمّا الإنسان المقهور فمن الطبيعي أن يعوّض احتياجاته النفسية والجسدية، فيلتهم الدنيا بعيونه. نعم نجح الطاغي بتجويع البشر، وبجعل بعضهم يجرّون ثوبه الطويل، ومَن يتمرد منهم فجدرانه العالية تنتظره، لكنه نسي أن الجوع الأول والعطش الأول والجمال الأول هو الحرية، أولى الحاجات وآخرها، وهذه أصيلة في الدم، أصيلة بحضارتنا، أصيلة بإنساننا، رغم كل محاولات الطاغية جعله إنساناً يأكل ويشرب فقط، ويأتمر بخدمته، ويوقف دوران الزمن خلف جدرانه العالية، يصبح الوطن معتقلاً لأبنائه تارةً بمشيئتهم وأخرى رغماً عنهم.

حينما تزداد القيود على الأيادي، فتصبح غريبةً على الأقلام، غريبةً على المحراث والنول وحتى البندقية، غريبةً على يدٍ تصافحها أو شعورٍ تحاول مجاراة انطلاقه، وحينما تبحث اللغة عن مفرداتها في ضحكات الأطفال، فتعاندها لعبة الشمس والظلال، حينها فقط تَشرع العيون إلى لا شيء.

"فلنحافظ على رمق الحياة".. يقول معتقلٌ لآخر..

ولكن كيف؟ هل نفسّر تزيين خيمة اللجوء وزرع الورود أمامها استسلاماً ورضاً بالوطن الخيمة؟

لكن الجانب الآخر لما لم تره العيون، أنّ السوري وإن أصبح وطنه خيمة، فإنّه بكلّ ما أوتي من حياة رغم قهره الطويل، لقادرٌ على تحويل منفاه إلى وطن، ليست دعوةً لتزيين قهرنا الطويل بل لإعادة الحياة ونبضها بكل ما تفعله أيادينا، ولكل ما تراه عيوننا، حتى لا نفقد قيمنا الجمالية وتتحوّل حياتنا لاستهلاكٍ يلتهم أخضر نفوسنا.

لنعد إلى المعتقل الكبير وكيف يدفع بالإنسان إلى الرضا بالحدود الدنيا للمعاش، وإلى إقناع أطفالنا بكسرات الخبز، بل يحاول بعضهم عبر ذاكرةٍ منسيّة جعلها مطعّمة بنكهات الشوكولاتة!

السوريُّ قادرٌ على تحويل البسيط إلى مركّبٍ أوّل للحياة، وذاك المعتقل، حقّق قيمةً مضافةً للخمسين ليرة، فجمعته واحتضنته بعقد شراكةٍ مع شركائه في القهر، ذكرى الزوجة التي تنتظر خروجه، والأبناء الذين يحلمون بسهراتهم في دفء العائلة قد تحقّق، والعائلات التي ترى في خوفها ابتلاع الجدران لآبائهم وأمهاتهم في المعتقلات قد انفرج همّها.

والسوريُّ قادرٌ رغم كل القهر، أن يحوّل أدوات القتل إلى ألعاب وأن يقول للعيد توقّف ها هنا.. عند أطفال درعا، وأطفال حمص وإدلب، فهم قادرون على صناعة الفرح وتلك هي قيمهم الجمالية رغم كل الخراب في النفوس.

القدرة على الإبداع هي ردّ السوريّ على محاولة إفراغه وجعله جزءاً من تاريخٍ مضى ويمضي، ما

زالت ناعورة حماه تدور وتئن، شاهدةً على اغتراف الدم واغتراف ماء الحياة، بصفاوة عيون الأطفال، ونقاوة شغبهم للحياة.

شُرّدنا.. هُجّرنا.. اغتربنا.. نعم، لكنّ الأيادي والعيون لم تنسَ طعم الخبز ورائحة القهوة، وما زالت الآذان تحتفظ بباقي زغاريد الفرح المؤجّل، هذا ما يدفع المعتقلين إلى أشغال الخرز، سوارٌ لطفلة في المعتقل الكبير، ثوبٌ دافئ للجدّة، كلّ شيء رغم عفونة الجدران، مشغول بالمحبة، وبدفء الأيام القادمة.

يُهزَم الجلّاد والسجّان في المعتقل الصغير والمعتقل الكبير، حينما يرى أنّ السوريّ لم تفرغ روحُه وأنّه رغم كلّ الخوف والقلق، رغم كلّ ما شنّه من حروب، ما زال قادراً على العطاء، وإذا ما فكّر بفتح باب القفص، سيجد أبناءنا في المغتربات أوفياء لعهود القهر، بأن يُقال: كلّ ما يحتاجه السوري هو الاهتمام وستجدهم كلّهم مبدعين.

الإبداع هو الفيصل بين السقوط في قاع القيم الاستهلاكية والقدرة على إضافة قيمة جمالية. تكاتف الناس وتشاركها الهم عقدٌ مصنوع من محبّة الحياة، حينها الخيمة ليست عاراً، وكسرات الخبز المبللة بالماء ليست سُمّاً. العار هو أن نحتفظ بآثار خرابنا شاهداً على الهزيمة، كما فعل الطغاة بالاحتفاظ بدمار القنيطرة، العار أن نقيّد الطفل ونقول له: انحنِ تحت علم البلاد. هكذا تُستهلك الحياة وتُستهلَك كل قيمة يحملها الإنسان. بل العار أن نستعذب سياط الجلّادين ونزيّن عصاه بخرزة زرقاء.

من الخطأ القول لم يبقَ لدينا ما نخسره، القول الحق لدينا الكثير لم ننجزه بعد، ناعورة حماه ما تزال تغرف الماء صافياً، ومياه النهر تجدد نفسها، وتغسل أحلامنا مهما كدّرتها أنفاس الطغاة.

ما حصل في درعا يثبت أن تكاتف الناس قيمةٌ جماليةٌ مُضافةٌ لعيشٍ مشترك ولحياةٍ مشتركة، حصار حمص وحصار الغوطة لم تستهلك البشر، رغم كل الموت الذي عاشه السوري فما زال قادراً على صناعة الحياة، ولن يستطيع الطغاة اعتقال الحياة، حسبهم زنازينهم، تردد صدى خوفهم.

السوريُّ قادرٌ على صناعة الحياة مهما اشتدّ قيده، وحسبه يقول: إن حبستموني فإنّ حبسي خلوة، وإن نفيتموني فإنّ نفيي سياحة.

طوبى للسوريّ المبدع.

من إدلب إلى درعا..
رسائل دعم وتضامن ومناصرة

هاديا منصور

لا تكاد تغيب درعا عن الساحة الإعلامية حتى تعود إليها بأحداث تصعيد جديدة، رغم الاتفاقيات الهشة والتسويات التي لم تكن أكثر من نار تحت الرماد تتأجج نيرانها كل مدة، وخاصة بعد فشل قوات النظام باقتحامها، عقب حملة عسكرية واسعة على درعا البلد مستخدمة شتى أنواع الأسلحة كما حصل مؤخراً.

دفعت أحداث درعا الأخيرة أهالي إدلب وشمال غرب سوريا، مقيمين ونازحين، للتضامن مع درعا خلال الحملة هناك والتي راح ضحيتها مدنيين بينهم أطفال ونساء.

يقول "حسام الجندي" (35 عاماً) وهو ناشط حقوقي من إدلب: "إن قضية درعا وإدلب وباقي المناطق السورية هي قضية واحدة، ودرعا اليوم تحمل على عاتقها كل حرب السوريين ضد نظام الأسد المستبد والمجرم"، مضيفاً: "من واجب كافة المناطق المحررة وفصائل المعارضة نصرة أهالي درعا وفتح جبهات للتخفيف عنها قدر المستطاع، لتشعر درعا أننا معها وتنقذ ما تبقى من معاقل المعارضة في الجنوب السوري".

وكان النظام السوري روج قبل حملته الأخيرة على درعا أنها تضم إرهابيين ودواعش كي يبرر هجومه على المدنيين وارتكابه الجرائم المتعددة وحصاره للمدينة، وقد تكون جولة التصعيد هذه مختلفة عن سابقاتها، وبات واضحاً قلق النظام وحلفائه روسيا وإيران من إمكانية تأسيس إدارة ذاتية في درعا، وأن تشكل مع السويداء المجاورة التي تتمتع بنوع من الإدارة الذاتية، نواة لإدارة ذاتية تشمل عموم الجنوب السوري.

وفي السياق يرى الطبيب "لؤي الحسن" (40 عاماً) وهو نازح من درعا ومقيم في إدلب، أن المنطقة الجنوبية، وتحديداً درعا، هي مهد الاحتجاجات الشعبية التي انطلقت قبل عشرة أعوام ضد نظام الأسد، وانتقلت منها

إلى بقية المدن والمناطق السورية، موضحاً: "تحولت منذ ذلك الحين إلى أيقونة في وجدان الشعب السوري الرافض لحكم الأسد، ومن هنا أطالب بعدم التخلي عن درعا وتجديد المظاهرات بشكل مستمر، ونشر التعليقات والصور ضمن هاشتاغات متعددة على مواقع التواصل الاجتماعي ومنها #لا تتركو درعا وحيدة، #درعا لن تهزم#، #درعا مهد الثورة السورية تحت النيران ، وغيرها من العبارات للفت أنظار العالم لما يجري في درعا البلد".

ويشيد الحسن بصمود أهالي درعا وشجاعتهم رغم كل ما تعرضوا له من انتهاكات وجرائم من قبل قوات النظام لإخضاعهم وإذلالهم.

وتتفق آراء السواد الأعظم من المدنيين في إدلب على التضامن مع درعا وإعجابهم ببطولاتها، وقد عبروا عن ذلك بالمظاهرات التي عمت أرجاء إدلب وشمال غرب سوريا، وأشارت لافتاتهم إلى مدى دعم أهالي إدلب لدرعا وتضامنهم مع محنتها وما تتعرض له من اعتداءات، والتي كتبت عليها عبارات متنوعة منها: "درعا درع الثورة ومصدر قوتها"، "لا اتفاقية ولا عهد مع قاتل"، "درعا صامدة ولن تهزم"، "درعا على أبوابها سيسقط الطغاة"، "من إدلب العز: آتي من درعا"، "من حوران هلت البشاير".. وغيرها.

الأربعينية "رهام العبد الله" وهي من درعا ومقيمة في إدلب منذ ست سنوات، لم تخفِ خوفها على مدينتها ومسقط رأسها من استيلاء "ميليشيات الأسد" عليها، وتقول: "إن سقطت درعا ستسقط سوريا كلها بيد النظام المجرم، فدرعا التي ضحّت وما زالت منذ بدايات الثورة السورية بالغالي والنفيس من أجل ثورة يتيمة تخلى عنا القاصي والداني لن تستسلم ولن يكون هناك مكان ليأسها، هي صامدة وتدافع عن حقها في الحياة وعن حق كل سوري في الكرامة والحرية والعيش الكريم".

وبينما تشهد محافظة درعا جنوب سوريا تطورات ميدانية متلاحقة، ترنوا الأنظار إلى مصير أحد أهم معاقل الثورة السورية وحصنها المنيع وترى الآمال فيها بالنصر.

ارتفاع درجات الحرارة
وجه آخر للمعاناة في مخيمات إدلب

دارين الحسن - إدلب

لا يحتمل الستيني "أبو سعيد" البقاء في خيمته عند الظهيرة، فيضطر للخروج والجلوس تحت ظل شجرة زيتون قريبة من المخيم، ويرشّ ملابسَه بقليل من الماء، في محاولة للتخفيف من تأثير الحر على جسده النحيل ونفسه المشبعة بالهموم والأوجاع.

أبو سعيد من مدينة سراقب يعيش مع زوجته في أحد مخيمات مدينة أطمة الحدودية مع تركيا منذ أكثر من عام ونصف، وهو ككل النازحين الذين يعانون من ارتفاع درجات الحرارة في ظل انقطاع الكهرباء، وشحّ المياه، وضعف الرعاية الصحية، الأمر الذي يعرضهم للإصابة بالأمراض، ويفاقم أحوالهم المتدهورة أصلاً.

أساليب بدائية لتخفيف وطأة الحر

يتحدث أبو سعيد عن معاناته: "الشتاء غريق والصيف حريق؛ حيث نواجه العديد من المشاكل في فصل الصيف، في مقدمتها نقص المياه والرعاية الصحية، وانتشار الحشرات، والسكن في خيام مصنوعة من النايلون، لا تحمينا من الغبار والحشرات وحر الصيف الذي يكوينا ويأخذ علينا أنفاسنا".

ويؤكد أبو سعيد أنه لا يجد ملاذاً إلا اللجوء للأراضي المزروعة بالأشجار، هرباً من درجات الحرارة الخانقة داخل الخيام، فهو مريض بالضغط والسكري، ويزيد الحر من آلامه وأوجاعه، دون أي إمكانية لمغادرة المخيم بسبب فقر حاله وارتفاع إيجارات المنازل.

الأوضاع مع "جميلة الكريدي" (35 عاماً) النازحة من مدينة معرة النعمان إلى مخيم حربنوش بريف إدلب الشمالي، قد تكون أسوأ، باعتبارها أم لخمسة أطفال، تحاول درء الحر عنهم من خلال وضعهم في أوعية مليئة بالماء وقت الظهيرة! وعن ذلك توضح: "الحر لا يطاق داخل الخيام، فما أن تشرق الشمس حتى نشعر وكأننا نجلس داخل فرن، كما نعاني من الغبار الذي يتسلل إلى خيامنا عند هبوب الرياح، وانتشار الذباب والبعوض، وفساد الطعام بسرعة كبيرة نتيجة ارتفاع الحرارة وعدم وجود كهرباء لتشغيل الثلاجات".

وتؤكد أن اثنين من أطفالها بأعمار 3- 5 سنوات أصيبا بمرض الجفاف منذ عشرة أيام مضت، وتظهر عليهما أعراض إسهال واقياء مع ارتفاع درجة حرارة الجسم، بسبب الحر الشديد، ولا تزال مستمرة في علاجهما.

وعن الطرق التي تحاول من خلالها حماية أطفالها تقول: "أشتري ألواح البوظ بشكل يومي لتبريد مياه الشرب، وأبلل قماش الخيمة بالماء لترد عنا حرارة الشمس الحارقة".

مطالبات دون استجابة

من جهته "وليد الجمول" (41 عاماً) مدير مخيم في بلدة كللي يشرح أوضاع النازحين: "موجات الحر الشديدة هذا الصيف أدت لتفاقم أمراض كبار السن والأطفال في المخيم، وسط انقطاع تام للكهرباء، وقلة في المياه، دون أن يتمكن كثير من النازحين من الوصول إلى المراكز الطبية في المنطقة والاستفادة من خدماتها، لبعدها عن مكان إقامتهم، وعدم توفر المواصلات، وضعف إمكانياتهم المادية".

ويشير الجمول إلى كثرة الزواحف السامة في السهول التي تقام عليها المخيمات، مثل الأفاعي والعقارب، وانتشار الروائح الكريهة المنبعثة من مكبّ النفايات القريب من المخيم، والصرف الصحي المكشوف.

ويطالب المنظمات الإنسانية برشّ المبيدات الحشرية، وتوزيع عوازل للخيام لتقي ساكنيها من حرارة الصيف اللاهبة، إلى جانب توزيع ألواح طاقة شمسية وبطاريات، كون أغلب النازحين لا يمتلكون مراوح، إضافة لزيادة مخصصات المياه والمنظفات للنازحين في فصل الصيف.

وحذّر فريق "منسقو استجابة سوريا" من مخاطر ارتفاع درجات الحرارة على النازحين السوريين في مخيمات الشمال السوري، ورصد الفريق انعدام المياه الصالحة للشرب في أكثر من 200 مخيماً في مناطق أطمة وقاح ودير حسان وحارم وحربنوش وكللي شمال إدلب، حيث تضم هذه المخيمات ما يقارب 400 ألف نازح، الأمر الذي تسبب في إصابة عدد كبير من النازحين بأمراض جلدية كالجرب وغيره من الأوبئة، بينهم أطفال ونساء.

كما وجّه الفريق نداءً لجميع المنظمات الإنسانية لزيادة المشاريع الإنسانية، وتأمين العديد من المستلزمات الأساسية للنازحين، بغية تحسين الأوضاع الأساسية في المخيمات لمواجهة ارتفاع درجة الحرارة في المنطقة.

النازحون عرضة للأمراض

بدوره الطبيب "أسامة الرزوق" (38 عاماً) من مدينة إدلب يقول لـ"طلعنا عالحرية" عن الأمراض التي تنتشر في أوساط النازحين خلال فصل الصيف: "يؤدي ارتفاع درجات الحرارة في ظل نقص مستلزمات النظافة الشخصية والمياه إلى انتشار عدد من الأمراض المعدية بين النازحين، ومنها الجرب الذي ينتشر مع ارتفاع درجات الحرارة وقلة النظافة الشخصية".

ويشير إلى انتشار أمراض أخرى كالتهاب المعدة والأمعاء، والإسهالات الناتجة عن استخدام المياه الملوثة، وانعدام مقومات النظافة العامة، مؤكداً أن العلاج وحده غير كاف، إن لم يؤمن للنازحين الكميات الكافية من المياه الصالحة للشرب، والاستحمام اليومي في فصل الصيف وغسل الثياب بمياه معقمة.

وينصح الطبيب النازحين بالتزام الخيام ما أمكن وقت الظهيرة، وعدم التعرّض لأشعة الشمس المباشرة، لاسيما الأطفال وكبار السنّ، وتخفيف الحرارة عن الأطفال باستخدام الماء، مع الإكثار من شربه تجنباً للجفاف، وحفظ الأطعمة بشكل جيد خوفاً من فسادها، ما قد يؤدي إلى التسمم.

وبحسب إحصائيات فريق "منسقو استجابة سوريا"، بلغ عدد المخيّمات الكلّي في مناطق شمال غربي سوريا 1304 مخيماً، يقيم فيها نحو مليون و44 ألف نازح، ومنها 393 مخيماً عشوائياً، يقيم فيها 187764 نازحاً.

التعامل بالليرة التركية يرهق سكان ريف حلب ولا ينهي الأزمة المعيشية

حسين الخطيب

انهيار الليرة السورية أمام العملات الأجنبية الأخرى، فرض على المجالس المحلية في ريف حلب الشمالي اتخاذ قرار يقضي بالتعامل المالي بالليرة التركية، وجعلها بديلاً في جميع التعاملات النقدية، حفاظاً على استقرار الأسواق، لا سيما أن انهيار الليرة السورية سبب أزمة معيشية لدى معظم القاطنين في ريف حلب من عاملين في القطاع الخاص والعام والعاملين في المياومة، نتيجة تقاضيهم أجورهم بالليرة السورية، بينما معظم عمليات شراء حاجياتهم يتم حسابها بحسب سعر الصرف اليومي.

مضى حوالي العام على بدء تداول الليرة التركية في جميع المعاملات النقدية في أسواق ريف حلب الشمالي، ويبدو ظاهرياً أن ذلك حافظ على استقرار أسعار السلع والمنتجات الغذائية، وفي الوقت ذاته لم يخلص الأهالي من الأزمات المعيشية التي باتت ترهقهم وتزيد من معاناتهم، لأنها ليست حلاً في ظل انعدام فرص العمل وندرة مصادر الدخل المعيشية، وانخفاض الأجور اليومية في حال توفر العمل.

يجلس "أبو محمود" (41 عاماً) على قارعة الرصيف في سوق الهال بمدينة مارع بريف حلب الشمالي، ينتظر أن يناديه أحد التجار للعمل في العتالة، وهو عمل يومي يتقاضى أجره مقابل إفراغ حمولة سيارة من صناديق البندورة، مع عدد من العمال الذين يعملون بالعمل ذاته.

يقول الرجل خلال حديثه لمجلة طلعنا على الحرية إنه يحصل على أجر إفراغ السيارة 50 ليرة تركية، يتقاسمها مع اثنين من العمال يعملون معه في المهنة ذاتها، وهكذا في بعض الأيام يستطيع أن يعمل بـ 35 ليرة، وفي أيام لا يعمل على الإطلاق بحسب حركة الأسواق.

وعن مقارنة الأجور اليومية بأسعار السلع يوضح: "إن الأسعار في الأسواق لا تتناسب مع دخلنا اليومي؛ فالعمل ليس متوفراً طيلة الشهر، وكذلك المبلغ الذي أحصل عليه لا يغطي شيئاً من حاجيات أسرتي، فعلى سبيل المثال فالكيلوغرام من السكر 5 ليرات تركية، والكيلوغرام من الشاي 60 ليرة، فكيف يمكن أن تغطي أجورنا هذه الفوارق؟".

ويضيف الرجل: "في السابق قبل الثورة السورية، كنت أعمل ليوم واحد يوفر لي الطعام لثلاثة أيام حيث كان أجري اليومي يصل إلى 500 ليرة سورية ما يعني 10 دولارات أمريكية، أما الآن فالأجر اليومي الذي أحصل عليه لا يصل إلى 4 دولار أمريكي"، ويشير إلى أن التعامل بالليرة السورية كان أفضل، لكن انهيارها المتواصل "جعلنا نعاني أيضاً، لذلك التعامل بالليرة التركية جيد، ولكنه ليس حلاً ينهي معاناتنا".

ويشتكي سكان ريف حلب الشمالي من التعامل بالليرة التركية في عمليات الشراء والبيع في مختلف الأسواق، سواءً الأدوات الكهربائية والألبسة والمواد الغذائية والخضروات، لأنها في معظم عمليات البيع تعرضهم للخسارة، كما يستغل الباعة الأهالي خلال عمليات البيع بالليرة التركية مع غياب للقطع النقدية الصغيرة، وبقاء سعرها حسب أدنى قطع نقدية متوفرة، وهي 0.5 ليرة تركية.

يقول "عبد الرحمن أبو حسن" وهو صاحب متجر للمواد الغذائية، في أحد أسواق ريف حلب الشمالي خلال حديثه لمجلة طلعنا على الحرية: "إن التعامل بالليرة التركية أفضل من التعامل بالليرة السورية لأننا كنا يومياً نبيع السلع على الليرة السورية، وآخر اليوم يكون سعرها على الدولار مختلفاً تماماً ونتعرض لخسارة كبيرة".

ويضيف: "نحتاج إلى عملات نقدية صغيرة لنستطيع البيع من خلالها، لأنها غير متوفرة في الأسواق، مما يدفعنا إلى تسعير بعض الأطعمة حسب أصغر قطعة نقدية متوفرة وهي النصف ليرة، وهذا الأمر يصفه الأهالي بالاستغلال!".

ويؤكد: "أن أسعار السلع استقر أكثر من السابق، على الرغم من عدم ثبات سعر الليرة التركية أمام الدولار، لكنها ليست بدرجة تقلب الليرة السورية، التي كانت تتأرجح كل ساعة، وبدأنا نحقق أرباحاً جيدة نوعاً ما".

ويشير إلى أن الليرة التركية لم يتم التبادل بها في عمليات البيع كحل للأزمة المعيشية، وما يجري في الوضع الراهن من انخفاض قيمة الدخل في حال توفر، هو عدم تناسب أجور العمال مع أسعار السلع".

من جانبه "عبد الله العلي"، يقيم في مدينة صوران بريف حلب الشمالي وهو موظف في القطاع العام يقول لمجلة طلعنا على الحرية: "إن أسعار السلع في الشمال السوري قريب جداً من أسعار السلع في تركيا، وهذا يعني يجب أن تكون مصادر الدخل في ريف حلب قريبة من مصادر الدخل في تركيا، لأن التعامل بالليرة التركية لم ينهِ الأزمة، بل سبب أزمة أخرى، وهي عدم إيجاد حلول للعاملين الذين يتقاضون أجورهم التي تصل في أحسن حالاتها إلى 800 ليرة تركية شهرياً، وهي ما يعادل 95 دولار أمريكي".

ويضيف: "على الجهات المحلية سواءً المجالس المحلية أو غيرها السعي من أجل تحسين الواقع المعيشي للناس، من خلال رفع أجور العاملين في القطاع العام، وإيجاد فرص عمل للعاملين في المياومة، والتي تصل نسبتهم إلى 60 % من سكان المنطقة، من خلال منح رؤوس الأموال إمكانية إنشاء مصانع ومعامل وترغيبهم في العمل وتسويق بضائعهم..".

ويحتاج السوريون في ريف حلب الشمالي إلى مصدر دخل شهري لا يقل عن 2500 ليرة تركية من أجل أن تتناسب مع أسعار السلع واحتياجات أسرهم اليومية، لا سيما أن معظمهم يكابدون في سبيل توفير أدنى المقومات المعيشية لأسرهم التي باتت تتغافل الكثير من الأساسيات على أنها شيء من الرفاهية، ولذلك لا بد من إيجاد حل للأمر قد ترتبط به العديد من القضايا من أبرزها عمالة الأطفال والسرقة والخطف مقابل المال.

محصول التين الأخضر والمجفف يؤمن فرص عمل جيدة في إدلب

شمس الدين مطعون

يجهز سعيد 26 عاماً دراجته النارية مع ارتفاع أشعة الشمس، ويضع عليها عدداً من الصناديق البلاستيكية، وينطلق متوجهاً لحقول التين في بلدته سرمين بريف إدلب.

يقول سعيد: "قبل انطلاق الموسم اتفقت مع أحد أصحاب حقول التين، على (الضمان) أنا أضع عملي وجهدي ونتقاسم مرابح البيع مناصفةً".

استطاع سعيد وهو طالب جامعي أن يجد فرصة عمل جيدة لا تتطلب منه التفرغ بشكل دائم، كما أنها لا تحتاج لرأس مال، "يمكنني أن أوفر معظم مصروفي الجامعي خلال عملي في جني التين بمدة لا تتجاوز الشهرين" قال سعيد.

يبدأ موسم قطاف التين منذ منتصف شهر تموز، ويستمر 60 يوماً تقريباً، وخلال هذه الفترة تنضج ثمار أشجار التين ليمكن قطفها مباشرة، ويعرف بالتين الأخضر، أو تركها حتى تجف وهو التين (اليابس) المجفف.

يتطلب قطاف ثمار التين الأخضر سرعة ومداومة، وخصوصاً في أوقات ارتفاع درجات الحرارة، لذلك يخرج سعيد للعمل باكراً قبل أن تلسعه أشعة الشمس، ليتمكن من جني حبات التين وبيعها في السوق، كما يلجأ بعض الأهالي لتأجيل رحلة الجني لفترة أخرى وهي "العصرية" وتبدأ عندما تخف أشعة الشمس في آخر النهار.

يؤمن موسم التين فرص عمل جيدة لكثير من الأهالي، فهو يحتاج إلى القطاف والتعبئة والشحن والتسويق، ومن ضمن شروط العمل في قطاف التين أنه يتم الاتفاق على الأجر على كل ساعة عمل.

ويقول "أبو عمر" مزارع من بلدة سرمين، إن حمولة شجرة التين الواحدة الجيدة تقدر بحوالي 70 كيلو غرام، ومع تقدم عمر الشجرة تبدأ حمولتها بالتراجع، كما أن شجرة التين لا تعمر أكثر من 50 عاماً.

لذلك فإن الأهالي الذين يملكون أشجاراً كثيرة ذات حمولة جيدة مضطرون لإيجاد عمال لقطاف المحصول "التين ما بيتحمل يبقى ع الشجر كتير، ولازمو حواش أول بأول" يقول أبو عمر.

ويوضح المهندس الزراعي "أحمد غزال" أن ما يميز زراعة التين أنها تنجح في معظم الترب، ومع قليل من الأسمدة لبعض التربة الضعيفة، كما تعتمد زراعة التين في إدلب على مياه الأمطار، ونادراً ما يُسقى المحصول، وهي لا تحتاج سوى لقليل من التقليم من سنة لأخرى.

ويقول غزال إن الأهالي خلال عملهم بالزراعة في إدلب يعتمدون على محاصيل رئيسية أبرزها التين والزيتون، وتتميز شجرة التين بتحملها للظروف المناخية، وبأنها لا تحتاج للكثير من الأسمدة والري "وهي ذات مرابح أوفر في حال وجدت طرق التصدير" يوضح المهندس غزال.

ويقول "محمد أبو حمزة" إن أسعار التين الأخضر تعتبر جيدة لهذا العام؛ نظراً لتراجع الكميات المطروحة بالسوق، ويضيف أن سعر كيلو التين تراوح بين 3 إلى 4 ليرات تركية، أما التين المجفف (اليابس) فقد تراوح سعره في بداية موسمه بين دولار ونصف إلى دولارين بحسب النوعية.

كما تتنوع أصناف التين في محافظة إدلب، ومن أشهرها السطحي والصفراوي والزعيبلي وكعب الغزال، وتتركز زراعتها بشكل أساسي في جبل الزاوية وريفه ومناطق سرمين والنيرب وريف المعرة.

***التين المجفف (اليابس):**

كما تجد السيدات في موسم التين فرصة عمل جيدة، حيث تنتشر ورشات لتجهيز التين المجفف، وتعمل السيدة "هيفاء" وهي نازحة من ريف المعرة وتقيم في بلدة المسطومة في ورشة لتجفيف التين في البلدة والتي تضم عشرات العاملات.

تقول هيفاء: "ما دفعني للعمل في تجفيف التين، هي سهولة العمل والذي سيؤمن لعائلتي دخلاً جيداً خلال فترة قصيرة".

حيث تقوم السيدات باستخدام المكابس لفرز ثمار التين حسب الجودة والحجم، ومن ثم تبدأ مرحلة الغسيل والتبييض في أحواض الماء لإزالة الشوائب والأوساخ، ثم تنشر حبات التين في الهواء الطلق حتى تجف، وبعدها يتم تغليفه ضمن أكياس خاصة وبأحجام مختلفة في قوالب متنوعة.

بينما استطاعت "زينب" أن تعمل بتجفيف التين من منزلها "لا أستطيع مغادرة البيت لأن أطفالي صغار ولا يمكنني تركهم لوحدهم" توضح السيدة.

وتضيف وهي تشرح طريقة عملها: "أحصل على التين الأخضر من السوق، ويطلب أن يكون ناضجا تماماً، وأنقعه بماء مغلي مملح لعدة دقائق، ثم أتركه حتى يجفّ على قطعة قماش نظيفة، وبعدها أقوم بتعليق حبات التين على حبال، وأعرضها لأشعة الشمس لمدة يومين".

في السابق، كانت زينب تبيع معظم إنتاجها من التين المجفف لأقاربها وجاراتها، ولكن مع تراجع الوضع المعيشي، باتت السيدة تخبئ إنتاجها حتى يستقر سعر السوق لتقوم ببيعه للمحال التجارية.

***مصاعب ومخاطر:**

على دراجته النارية يقطع "حسين" عشرات الكيلومترات من مخيمات الشمال حيث يقيم بعد النزوح مع عائلته، متجهاً إلى أرضه في جبل الزاوية لجني محصول التين.

ويشكل موسم التين مورداً هاماً لأهالي جبل الزاوية، وهي منطقة تعتبر الأخطر حالياً، بعد تصعيد قوات النظام قصفها على المنطقة.

يقول حسين: "لابد من المخاطرة لجني محصول التين، لأنه يمكن أن يحقق أرباحاً تكفينا مصروفاً لأشهر عدة، وبالأخص التين اليابس".

من جهته يوضح الناشط "إبراهيم الشمالي" من جبل الزاوية أن محصول التين في جبل الزاوية لهذا العام تعرض لمشاكل عدة أبرزها القصف المتكرر الذي تشهده المنطقة، والذي منع معظم الأهالي من الوصول لمحاصيلهم.

ويقول الشمالي: "تحتاج بعض الأشجار للتسميد والسقاية، لكن الغلاء وعدم الاستقرار لم يسمحا بتقديم الرعاية الكافية لأشجار التين، وهذا ما أدى لضعف إنتاجها".

ويضيف الشمالي أن موسم التين كان يؤمن سابقاً فرصاً لعشرات عمال المياومة لجني المحصول الوفير، لكن مع ضعف المحصول يضطر الأهالي لجني محاصيلهم بأنفسهم لتوفير أكبر قدر ممكن من الأرباح.

ثلاثيّة غرناطة

بشرى البشوات

"تبدو المصائب كبيرة تقبض الروح، ثم يأتي ما هو أعتى و أشد فيصغر ما بدا كبيراً و ينكمش متقلصاً في زاوية من القلب والحشا". رضوى عاشور في روايتها ثلاثية غرناطة.

كُتبت الرواية في ثلاثة أجزاء، آخرها جزء الرحيل، غَرناطة؛ التي تعني الرمانة وسمّيت بذلك لشدة جمالها.

يكمن صراع القصة لحظة سقوط غرناطة، بعد تنازل أبو عبد الله الصغير حاكم غرناطة آنذاك إلى فرناندو وايزابيلا عن الحكم عام 1492 هجري.

من هنا تتوالى الأحداث، حيث تبدأ محاكم التفتيش وعمليات الاضطهاد العرقيّة، فيتم تغيير جميع أسماء أفراد المجتمع إلى أسماء مسيحية، وتحوّل المساجد إلى كنائس.

ويتم إجبار الناس على تحويّل دياناتهم من الإسلام إلى المسيحيّة بالتعميّد. ثم منع العادات والتقاليد الإسلامية التي قام عليها المجتمع سابقاً، وإحراق جميع كتب اللغة العربية والمصاحف.

مما يشكل صدمة على جميع فئات المجتمع في غرناطة. فتبدأ الهجرات الجماعيّة ويعلن التاريخ مرحلة انتقاليّة.

البطلة الرئيسية في الرواية "عائلة أبو جعفر" الذي كان يعمل مجلّداً للكتب، وفي خضم كل ذلك تعيش العائلة وتنجب وتفرح بأبنائها، ويموت بعض أفرادها فيحزنون لكنهم يستمرون في العيش.

في نهاية الرواية يتأكد "علي" أحد أبطالها أنه، وبالرغم من كل ما حدث لأهل الأندلس من المسلمين، فإن الموت هو في الرحيل عن الأندلس وليس في البقاء فيها: "نحن لا نختار بين بديلين، بل هو قدر مكتوب، نحن مهزومون فمن أين الاختيار؟".

غَرناطة الحصن الأخير للمسلمين في الأندلس

تركّز الراوية على الشخصيات البسيطة، لم يتم تحميلها بالأسماء الكبيرة؛ الأمراء والحكام الذين أضاعوا غرناطة.

.....

كنت قد اشتريت رواية ثلاثية غرناطة من مكتبة النوري في قلب دمشق في شهر آب من سنة 2015، قبل أشهر قليلة من مغادرتي دمشق وسوريا نهائياً! (طبعا لم أكن أتوقع ذلك).

مرت ست سنوات على ذلك اليوم، حين مشيت وحدي عبر شوارع دمشق.

التقطت الكثير من الصور، نظرت في صور الإعلانات، والأبنية والشوارع والساحات والشرفات المفتوحة على

شمس دمشق الحارقة في ذلك الصباح.

تتشابك أحداث الرواية كما تشابكت حياتي، وصار من الصعب أن أمسك بأي خيط منها.

تهتم الرواية بالتفاصيل كما امتلأت حياتي بالتفاصيل بعد أن عبرت جبل الزاوية في إدلب وفي حضني ابنتي الرضيعة.

لم أحمل من سوريا سوى جوازات السفر الخاصة بنا، بطاقاتنا الشخصية، جهاز اللابتوب الخاص بنا، ورواية ثلاثية غرناطة!

نعم الرواية من بين خمسمئة كتاب كان موجوداً في مكتبة البيت الذي كنّا نستأجره في مدينة الحسكة، آخر معاقلنا في سوريا، كما كانت غرناطة آخر معاقل العرب في الأندلس.

سقطت حقيبة ظهري مرتين وأنا أركض لأقطع الحدود، وأنا أركض لأنشد الخلاص لي ولهذين الطفلين، لكنني عدت وحملتها لأنني لم أرغب أن أفقد الرواية، ولم أعرف بعد سر عودتي وإصراري على إعادة التقاطها!

عبرنا الحدود في شهر تشرين الأول 2015

أذكر بأنني لم ألقِ ولو نظرة واحدة للوراء، لم أقوَ على رؤية أضواء المصابيح في سوريا التي ظننت بأنني أعرف.

ركضت بكل ما فيّ من طاقة، ركضت حتى دون أن أوقع معاهدة تنازل عن حصة سوريا في دمي.

أردت أن أنشد خلاصي بأنانية مفرطة.

الهرب من الموت

عرفت الهجرة والنزوح مثلما عرفها أبو جعفر في رواية غرناطة. هربت من الموت الذي كان يطاردنا كما طارد عائلة أبو جعفر، لقد هربنا حتى لا يضعف شعورنا بسوريتنا! حتى لا نتهم بالتخاذل في حبّ الوطن تماماً مثلما اتُهمت العائلة في الرواية.

على شاطئ أزمير التركية كان يجب أن أتخفف من متاعي؛ فحمل طفلة رضيعة في حضني كان يكفي، مع بعض حاجياتها وأوراقنا الثبوتية. لكنني لم أتخفف!

كنت قد لففت الرواية مثلما فعلت مع الأوراق بالنايلون، واحكمت إغلاق الكيس جيداً منعاً لتسرب الماء.

حين قام المهرّب بتكورينا جميعاً في أرضيّة (البلم) كدسنا فوق بعضنا البعض دون ترتيب، فتكدّست معي الرواية أيضاً! عبرنا البحر كما فعل اللآلاف من السوريين؛ مشينا فيما بعد في أوربا الشرقية. قطعنا بلاداً لم أفكر يوما بأنها ستنهب قلبي في تلك اللحظات بجمالها الآسر.. وبقيت الرواية معي.

تخففت فيما بعد من حمولتي، رمينا ثيابنا المتسخة، حصلنا على أخرى نظيفة ومكويّة جيداً، ولكنني لم أتخفف من الرواية التي أصابت الرطوبة أوراقها، ومع ذلك حافظتْ على متانتها وظلت ساكنة بهدوء تام في حقيبة الظهر.

أرفع الحقيبة جيداً، أتمسّك بها تماماً كما كنت أرفع طفلتي إلى حضني وأتشبث بها.

أحافظ عليهما جيداً؛ إحداهما على ظهري والأخرى في قلبي!

أصل ألمانيا بعد رحلة استغرقت أيامًا معدودة، لكنها كانت بالنسبة لي دهراً مستمراً في الهرولة.

بعد الوصول وبعد تحقق شرط الأمان المطلوب

أفتح ذات ليلة كتابي المخزّن جيداً، وأطالع لوحة غلافه، رسم أنثى وراء ظهرها يتمثل ماضي غرناطة الزاخر ببساتينه اليانعة، قطعة من جنة مفقودة، وجهها ألوان مختلفة تدل على الكثير من الأسى، وفي العينين لون أصفر مضيء وكأن حريقاً يستعر أمامها، وتنعكس نيرانه في بؤبؤي العينين.

وأبدأ بالقراءة التي أجّلتها قبل أشهر:

الإهداء

إلى ابني تميم البرغوثي.

الإهداء من الأمّ المصريّة رضوى عاشور إلى الابن الفلسطيني.

وأكتب أنا الآن:

الإهداء

إلى ابنتي طلّ!

صحفيو سوريا بين إهمال الداخل وعجز الخارج

قصي الأحمد

تجهزت كالعادة ورتبت أغراضي، وتأكدت من بطارية الكاميرا، ومن وجود مساحة فارغة على كرت الذاكرة الذي لطالما امتلأ بالمتناقضات التي كنا نعيشها؛ بقصص المعاناة والنجاح، اليأس والطموح، الآلام والآمال.. وغيرها من القصص التي لطالما عملت على نقلها ومشاركة العالم بها.

جلست قليلاً مع زوجتي ولاعبت طفلتي حتى ارتفع صوت ضحكها، وأعطيت الحقيبة لأخي، وخرج وخرجت وراءه.

كانت الوجهة إلى مخيمات النازحين لنقل أوضاعهم واحتياجاتهم مع اقتراب عيد الأضحى، ولكن ما إن اقتربنا من السيارة قليلاً حتى تغيرت الوجهة تماماً..

كتلة كبيرة من اللهب وصوت انفجار ضخم غير كل شيء!

لوهلة لم أستوعب ما حدث، افتقدت أخي الذي كان أقرب مني إلى السيارة، فوجدته مرمياً على الحائط القريب يضع يده على رأسه، شاخص البصر ممتقع اللون، وكأنه قد شاهد ملك الموت يخرج من السيارة خالي الوفاض، وكان من المفترض أن يقبض أرواحنا لو خرجنا قبل خمس أو عشر ثوان على الأكثر!

أصبح الصراخ والعويل يحيط بي من كل جانب، ودلاء وأباريق الماء تنهمر على السيارة من كل حدب وصوب لإطفائها، والنار لا تزداد إلا لهيباً.

كان من المفترض بي أن أهرع معهم لإطفاء السيارة، لكني لم أفعل ذلك.. ربما بسبب ذهولي مما حدث، أو لأن ناراً أخرى اشتعلت هناك في صدري بسبب خوفي على أسرتي داخل المنزل. هرعت للاطمئنان عليهم، فإذا صوت ضحك ابنتي قبل دقيقة قد تحول إلى بكاء وصراخ سمعته من خلف الباب، وعلى الرغم من أنه كان بكاء إلا أنه كان كفيلاً لأن أطمئن وأتمالك نفسي.

سأكتفي بسرد هذه الأحداث من تلك الدقيقة التي كانت بحجم سنة، لأتكلم عن ما بعدها..

فوضى لدى الجهات المسؤولة الداخلية:

على الرغم من أنها المرة الثانية التي يتم استهدافي بها، وعلى الرغم من استهداف العديد من الصحفيين في مختلف مناطق الشمال السوري سابقاً، وكان بعضها قاتلاً، يلاحظ المتابع تخبطاً من قبل المعنيين بالتعاطي والتعامل الفعال مع تلك الحوادث؛ فوجود حوادث سابقة وتهديدات يتلقاها الصحفي أحياناً من جهات مجهولة، يستدعي القيام بإجراءات إضافية من قبل المعنيين عند معرفتهم بها، لكن أياً من ذلك لم يحدث، ربما ذلك عائد إلى الفوضى والبيروقراطية القاتلة داخل تلك المؤسسات، أو إلى نقص الخبرة في التعامل مع مثل هذه القضايا، أو غيرها من الأسباب التي يجب علاجها والتعامل معها بجدية ومسؤولية وجرأة بغية تحسينها.

ولعل بقاء قنوات التواصل مفتوحة بين الصحفيين والمسؤولين، والتعاطي الفعال مع التهديدات التي يشعرون بها، من شأنه أن يقلل كثيراً من المخاطر المحتملة.

منظمات دولية عاجزة:

تقف المنظمات الدولية -وخاصة المتصدرة للدفاع عن الصحفيين السوريين- عاجزة أمام ضغط التحديات والتهديدات التي يعاني منها الصحفيون في الداخل السوري، والتي تستدعي تدخلاً عاجلاً لتحقيق أدنى درجات السلامة للصحفي المعرض للخطر على أقل تقدير.

فغالباً ما يقتصر عمل الكثير منها على إصدار البيانات والإدانات، مبررة عدم قدرتها على المساعدة بوجود الصحفي في داخل سوريا، أو بسبب ضعف إمكاناتها أو إمكانات المنظمات الشريكة معها، على الرغم من مساعدتها لصحفيين محددين في بعض الأحيان، لكن دون وجود آلية واضحة لمساعدتهم -على الرغم من قلتهم- دون البعض الآخر.

وعلى الرغم من امتلاكها لكامل المعلومات عن الصحفي ووضعه والمخاطر المحتملة، إلا أنها في نهاية المطاف إما أن تعتذر عن مساعدته للأسباب التي ذكرناها، أو تماطله إلى أجل غير مسمى.

وما يجب على تلك المنظمات هو العمل الجاد لإيجاد آلية لمساعدة الصحفيين في داخل سوريا والذين هم عرضة للمخاطر أكثر من غيرهم -هذا إذا سلمنا بمساعدتهم للصحفيين خارج سوريا- بالإضافة لوجود آلية واضحة ومفهومة "وشفافة" لتقديم المساعدة والمستحقين لها.

احموا الصحفيين!

وقفت قبل أيام بالقرب من سيارتي المدمرة، ووضعت عليها ورقة مكتوب فيها "اليوم تم استهدافي وغداً قد يتم استهداف زميل آخر #احموا_الصحفيين في رسالة إلى الجهات المعنية بالداخل، والمنظمات المعنية بحماية الصحفيين ومساعدتهم بالخارج، بضرورة العمل الجاد للوقوف بجانب الصحفيين وحمايتهم وخلق بيئة آمنة لعملهم قدر المستطاع.. فهل يلقى ندائي آذاناً صاغية؟!

"بريد اللّيل" رواية الرّسائل المتعالقة والمصائر المتشابهة

ياسمين نهار

تعدّ رواية بريد اللّيل من الرّوايات التي نجحت في تسليط الضّوء على المصير الإنسانيّ في بلادنا العربيّة، من خلال عرضها لقصص أشخاص غادروا بلاد المآسي اليوميّة، والأرض المُتعَبة من الحروب والاستبداد والفقر.

الرّواية للكاتبة اللبنانية هدى بركات، وقد صدرت عن دار الآداب عام 2018، وحصلت على جائزة "بوكر" العربيّة عام 2019.

ومن اللّافت للنظر أنّ جماليّة الرّواية تبدأ من العنوان بوصفه عتبة أولى للنّصّ، وغير خافٍ علينا ما يتضمّنه هذا التركيب الإضافيّ من عناصر تحفيز للمتلقي ليعرف ماهية هذا البريد، وسبب تحديده بكلمة "اللّيل"

تُقسم الرّواية إلى ثلاثة فصول جاء الفصل الأوّل تحت عنوان "خلف النّافذة" وتدلّ هذه العتبة على رمزيّة عالية بما تشير إليه من دلالات التّرقّب والانتظار، وقد استخدمت الكاتبة في هذا الفصل تقنية الرّسائل المُرسلة من خمسة أشخاص مختلفين، كلّ رسالة بعد الرّسالة الأولى كانت دافعاً للشّخصيّة التّالية لكتابة رسالتها.

ولد كاتب الرّسالة الأولى وفي فمه ملعقة من العَوَز، ولأنّه أذكى أخوته أرسلته أمّه وهو في الثّامنة أو التّاسعة إلى بيت عمّه في العاصمة ليتعلّم، وكان لهذا الفطام النّفسيّ أثرٌ كبيرٌ على حياته وسلوكه؛ فبدا من خلال رسالة كتبها إلى حبيبته قلقاً متقلّباً عدوانيّاً، يتعاطى المخدرات في بلاد هاجر إليها ولم يلقَ فيها إلّا الوحشة والإفلاس.

بسبب الفقر والحاجة عمل في البلد الذي هاجر إليه عند عسكريّ انقلابيّ "فتح جريدة ليعلّم الخليقة أصول الدّيموقراطيّة" بعد أن سرق ثروات بلاده. إلّا أنّ عمل هذا الشّاب لم يدم طويلاً لأنّه طُرد من العمل هو وزملاؤه الكتّاب دون سابق إنذار، ورغم أنّه حلّق بعيداً عن أقفاص بلاده ظلّت الأسلاك تحاصره، وعيون أجهزة المخابرات تراقبه بعد أن جاء تصنيفه معارضاً إثر ترجمته لمقال.

وتجدر الإشارة هنا إلى وقوع رسالة الرّجل غير المكتملة بيد امرأة عربيّة وجدتها في دليل الفندق، وسرعان ما بدأت بكتابة رسالة إلى رجل تنتظره.

بدت من خلال رسالتها أنّها امرأة تجاوزت الخمسين، سافرت للقاء رجل كنديّ أحبّته في سنوات شبابها.

ويبدو لي أنّ هذه المرأة عانت من خذلان الأحبّة، وويلات حرب في بلد "وقعت وتشظّت كآنية كبيرة من الزّجاج"، بالإضافة إلى فقد الأب وما تلا موته من مشاعر متناقضة من إحساس بالفقد وغبطة تحرّر من حبّ قيّدها، ولعلّ حضور رمزيّة العصفور في رسالتها دليل على شغفها بالحريّة التي يُحرم أبناءُ بلدها تنشّقَ هوائها.

في المطار تُلقي المرأة التي خاب أملها من حبيب لم يأت رسالتها في سلّة المهملات؛ ممّا سهّل على أحد الموجودين في المطار قراءتها وهو بدوره شرع يكتب رسالة لوالدته مسترجعاً ذكريات الطّفولة والشّباب المؤلمة، وما تراكم داخله من إحساس مؤلم بالإهانة بسبب تعنيف والده له.

ومن تلك الذكريات تماديه مرّة في الكلام أثناء خدمته الإلزاميّة ليدفع عنه إحساس الإهانة الكامن في اللّاشعور؛ فوشى به شاب يغار من قوّته، وكما يحصل في المعتقلات اعترف بما أُلصق به من تُهم ليتخلّص من وطأة العذاب الجسديّ والنّفسيّ، وليبرهن لهم عن توبته طلبوا منه أن يعمل معهم ويعذّب المساجين، وفي لعبة تبادل الأدوار مارس أعنف أنواع طرق التّعذيب في هذه الحالة "يتّخذ العنف طابع التّشفي الذي لا يعرف الارتواء، لأنّ الجرح النّرجسيّ النّابع من القهر غير قابل للاندمال. فإنّ علاقة الإرهاب تولد بشك ملغز "إفراطاً في الاستكانة تجاه المُتسلّط، وإفراطاً في جبروت القوّة تجاه الأضعف" على حدّ تعبير الدّكتور مصطفى حجازي.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ آثار العنف المتأصّلة في أعماق الشّاب دفعته إلى الإجرام وقتل امرأة أجنبيّة مسنّة عطفت عليه في إحدى الدّول التي استقبلت اللّاجئين بعد اندلاع الثّورة في بلده.

هكذا تُرهب دول القمع مواطنيها وتحوّلهم إلى بيادق خائفة تارةً ومُتسلّطة على الحلقة الأضعف تارةً أخرى.

تقع رسالة الشّاب بعد إلقاء القبض عليه بيد امرأة تعمل خادمة في المطار، فتكتب بدورها رسالة إلى أخيها الذي ارتأى لنفسه أن يأخذ دور المُحاسِب المُتسلّط وهو المُستَلب على الأصعدة كافّة.

تختار الكاتبة في هذه الرّسالة أن تأخذ آلة التّصوير الخاصّة بها وتلتقط صوراً من القاع الاجتماعيّ الفقير وما يجري فيه من زواج القاصرات مقابل حصول الأهل على المال، وكيف ينتهي هذا الزّواج بالطّلاق في كثير من الأحيان، وهنا تجد الفتاة نفسها ضحيّة مجتمع لا يرحم، وظروف اقتصاديّة سيّئة تجبرها على الأعمال المُهينة والدّعارة.

الرّسالة الأخيرة في الرّواية من شاب "مثليّ" وجد رسالة في البار من فتاة إلى أخيها المسجون شجّعته على كتابة رسالة إلى أبيه.

تكشف الكاتبة من خلال قصّة هذا الشّاب عن هيمنة عدد غير قليل من الآباء في مجتمعاتنا على أبنائهم، وعجز الآباء عن إيجاد وسيلة للتواصل معهم، وهذا الشّاب كغيره من الشّبّان النّاجين من قوارب الموت انتهى به المطاف في بلاد الغربة، إلّا أنّ خصوصيّته الجسديّة والنّفسيّة جعلته يعيش في مجتمع ضيّق مع أقرانه المثليين يعاني الفقر والتّشرّد والوحشة دون أن يصله جوابٌ من أهله على رسالته.

الفصل الثّاني في الرّواية جاء تحت عنوان "في المطار" وهذا المكان يدلّ على علاقة تقابليّة بين ثنائيّات: (اللّقاء/ الفراق)، (الفرح/ الحزن)، (الأمل/ الخيبة) إلّا أنّ كاتبي الرّسائل جميعهم لم يلقوا في المطار إلّا الفراق والحزن والخيبة.. وفي هذا الفصل تركت الكاتبة مساحة للقارئ ليشارك في خواتيم عالمها الرّوائيّ وفق أفق التوقّع لديه، وهي بذلك تنقله من دور المتلقّي السلبيّ إلى دور المتلقّي الفاعل.

والفصل الأخير في الرّواية حمل عنوانين هما: "الخاتمة، موت البوسطجي" والسّؤال: لماذا جعلت الكاتبة روايتها تنتهي بموت البوسطجي (ساعي البريد)؟ أهو موت مجازيّ؟ وكأنّها أرادت أن تقول إنّ مصير الرّسائل كمصير أصحابها أي النسيان والتجاهل والضياع؟ أم هو موتٌ أمسى مصير من بقي في بلاد تنهبها الحرب وداعش؟

وليس بخافٍ علينا نفاذ الكاتبة إلى أعماق شخصيّاتها، ورصد حالاتها السيكولوجية، إلّا إنّ الشّخصيّات جاءت بدون أسماء صريحة، وكأنّ كلّ شيء يسقط ويضيع في زمن الحرب.

وفي الحقّ أنّ الكاتبة جعلت شخصيّاتها ابنة بيئتها الاجتماعيّة والثّقافيّة، ولم يفد اتصالها مع الآخر في إزالة ما علق بها من رواسب التّنشئة الاجتماعيّة والثّقافيّة الأولى.

وينبغي ألّا يفوتنا الحديث عن خروج الرّواية عن دائرة الزّمان والمكان المحدّدين تحديداً واضحاً؛ لكن عندما رصدت الكاتبة الغربة بأبعادها النّفسيّة والمكانيّة لأناس اغتربوا عن بلدان لم يجدوا فيها إلّا الفقر والاستبداد وويلات الحرب، أرادت أن يكون زمن الرّواية الحاضر والحاضر المستمرّ، وقد يرتدّ زمن الأحداث إلى مرحلة الطّفولة لدى بعض الشخصيّات.

ولم تحدّد الكاتبة أسماء الأمكنة بشكل صريح، وهي البلاد التي تركها أصحاب الرّسائل، وبلدان الاغتراب التي قصدوها، بالإضافة إلى المطار.

إنّ عدم التّحديد هذا أغنى خيال القارئ، ودلّ على القواسم المشتركة بين المنافي (القسريّة أو الاختياريّة) وكأنّ كلّ مكان يترك فيه الإنسان "البيوت الأولى" يشبه الأمكنة التي رصدتها الكاتبة بأبعادها النّفسيّة والماديّة، غير أنّ هذا لا يعني أنّ بلدانهم كانت أحسن حالاً فحضورها ولو كان في الحلم يكون "كالكوابيس"

ومن الملاحظ حضور الأمكنة المغلقة في الرّواية (الغرفة، البيت، البار، المطار، الزّنزانة، الفندق..) هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على قلق القاطنين فيها وضيقهم، وهم الغرباء المشرّدون، ممّن رسمت ظروف الفقر والحرب والاستبداد مصائرهم ودروبهم المسدودة.

والمتمعّن في لغة الرّواية يرى أنّها لغة بسيطة سهلة، بعيدة عن الإغراق في التعقيد؛ وهو ما يناسب أسلوب الرّسائل الذي بنت عليه الكاتبة طريقتها في السّرد.

يمكن في ضوء ما تقدّم أن نقول إنّ رسائل الرّواية كشفت الرّوابط المشتركة بين أشخاص لم يجدوا في بلادهم إلّا الفقر والنبذ والاستلاب؛ ويبدو لي أنّ الجسور التي عبروها إلى بلاد أخرى لم تساعدهم على محوّ الظّلال المهيمنة على حياتهم التي امتدّت فأثرت في أسلوب كتابتهم، لذا جاء بريدهم حزيناً مُعتماً كظلمة اللّيل.

طلعنا عالحرية